من وحي البيان

تفسير لبعض سور القرآن

التبيان في سورة الفرقان

أ.د. السيد عبد الحليم محمد حسين

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من وحي البيان

تفسير لبعض سور القرآن

سورة الفرقان — سورة الشعراء — سورة النمل — سورة القصص — سورة الأحزاب
سورة سبأ — سورة فاطر — سورة يس — سورة الصافات — سورة الملك

أ.د. السيد عبد الحليم محمد حسنين

الأمين العام المساعد لمجمع فقهاء الشريعة بأمريكا الشمالية
وعضو مجلس أمناء الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية
وبجمعية الإيمان الإسلامية بنيويورك

جزءان

شبكة الألوكة - قسم الكتب

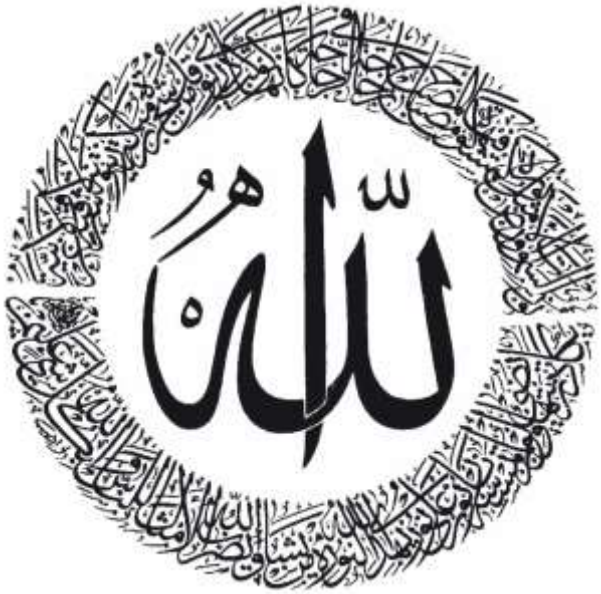

هذا الكتاب

جاء مقتبسا من بنات أفكار وأئمة كبار، لهم قدم ثابت في التفسير وغيره من العلوم .. مصفى منقى من الإسرائيليات المذمومة والممنوعة شرعا؛ ليكون حديقة مورقة الظلال لمن تفيأها...

ورجوت ألا يخلو من أحد المعاني الثمانية التي ذكرها ابن الوزير اليمني، وهي :

اختراعُ معدومٍ، أو جمع متفرق، أو تكميل ناقص، أو تفصيل مجمل، أو تهذيب مطول، أو ترتيب مخلط، أو تعيين مبهم، أو تبيين خطأ.

كذا عدها أبو حيان، وتمكن الزيادة فيها [1].

لأنه لا خير في تصنيف يخرج عن الأسباب السابقة أو ما ينبثق عنها...

آملًا بهذا العمل النفع والهداية والتوفيق لكل من طالعه، ودرسه، وحرص على فهمه، والعمل بما وعى ...

إن ربي على ما يشاء قدير

(١) إيثار الحق على الخلق لابن الوزير اليمني ص ٢٧ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله نحمده ونستعينه. ونصلى ونسلم على رسوله محمد صلوات ربى وتسليماته عليه وعلى آله وأصحابه ومن آمن برسالته، وجاهد في سبيل حماية دعوته.

وبعد. فإن أجلَّ ما يمكن أن تتطلع إليه الهمم ويستشرف للنهوض به أولو العزم من العلماء والمفكرين هو تجلية معانى كتاب الله الكريم، وتفسير آياته الجليلة، وشرح ما تضمنه أسلوبه من مثل رفيعة، وأحكام نافعة، وآداب فاضلة، وسُنّن اجتماعية دقيقة، ونذْرٍ قُدّمت بين يدى الأمم عظة وتبصرة وذكرى؛ حتى تسير على الطريق السَّوىّ، وتتجنب مصارع الدول التى سبقتها في غمار الحياة والحضارة والإنسانية.

فالقرآن آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا، وانتظمت سعادة الدنيا والآخرة ونزلت هدى ونورًا للبشرية كافةً، وقضت على الأوهام الباطلة، والأساطير الكاذبة، والعادات الضالة، والأديان المنحرفة، وأحالت الظلام ضياء، والشقاء سعادة، واليأس أملًا، والضلال هُدًى، والهمجية مدنية، والجهل علمًا، ومعرفة وفنًّا وأدبًا وثقافة، نبع من معينها الزاخر كل من رغب في الخير، وطمح إلى السلام والنور، ونقلت الإنسانية من عصر تسوده الفوضى. وتذيع فيه مبادئ الطغيان والعبودية. وسفك الدماء. ونهب الأموال وهتك الأعراض، إلى حياة فيها رضى وأمن، وطمأنينة وسلام، وحرية وعدل وإخاء. ومعرفة وعمران وحضارة، وحدود محدودة وضعت لسعادة الناس والجماعات والشعوب والإنسانية قاطبة.

قبس من الهدى والنور، نزل به جبريل من السماء إلى الأرض، على سيد الخلق، وأكرم الرسل، وأشرف من في الوجود. محمد صلوات الله عليه فبلغه

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الناس، وبشّر بدعوته العرب والبشر كافة، وأذاع مبادئه فى كل مكان فحملت إلى العالم السلام والعدل والحرية وفتحت صفحة جديدة في تاريخ الإنسانية، وأنقذت الناس من ضلال الجاهلية الأولى.

إنه كتاب الإنسانية عامة، قبل أن يكون كتاب المسلمين وحدهم، وهو جدير بالتأمل والاعتبار والفهم والتدبر، وأحكامه وآدابه وعظاته ما هى إلا سور منيع يحمى الفرد والمجتمع والشعوب من الانهيار، ومن الضلال في مهامه العيش وبيداء الحياة، وتيه الحيرة، وجحيم الذل والهوان.

فلا أمل في أن يسود السلام العالم، وأن تطمئن الشعوب إلى مصائرها وحياتها إلا بالعمل بالقرآن، وبما تضمنه من كل عظيم من التشريع، وبليغ من القول.

لأن مهمة القرآن أن يبلغ العقل البشرى رشده، وأن ينتفع به الناس في دينهم ودنياهم، ويهتدوا به إلى سواء السبيل في شئون حياتهم، وقد اتخذ في هذا نهجًا في إصلاح العقائد، وتهذيب الأخلاق، وترسيخ قواعد التنظيم الاجتماعى التى تبشر البشرية بالحياة الطيبة.

وقد جاء القرآن بعضه مُجملًا، وبعضُه مفصّلًا، فالمفصل هو الأصول التى جاء بها، والمجمل هو عامة الأحكام التى تتفرع عن هذه الأصول.

ولن يذل من عمل به، ولن يهون من اهتدى بشريعته.

وهذه وقفات وجيزة مقتبسة لبعض سور من كتاب الله أردتها أن تكون بين يدى القارئ تبصرة وذكرى، نفع الله بها قارءها وكاتبها وناشرها.

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

أ د / السيد عبد الحليم محمد حسين

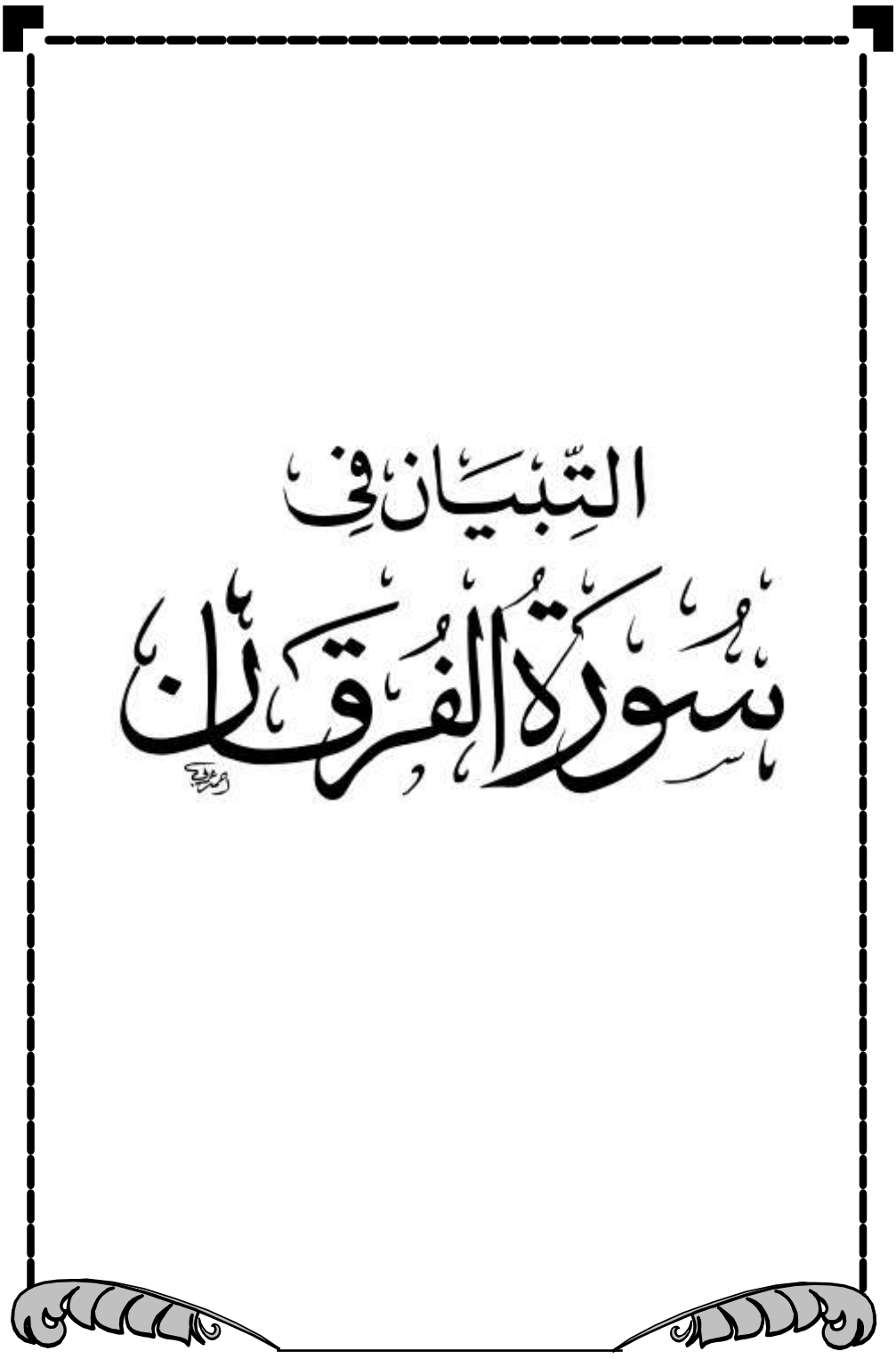
التبيان في
سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

التبيـــان فى ســـورة الفرقـــان

اسمهـــــــا

تسمى سورة الفرقان لما ورد فى الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضـــى الله عنه قال: سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فى حيـاة رسـول الله ﷺ فاستمعت القراءة، فإذ هو يقـرأ عـلى حـروف كثـيرة لم يقرئنهـا رســول الله ﷺ فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه فقلـت: مـن أقـرأك هذه السورة التى سمعتك تقرأ قال: أقرأنيها رسول ا لله ﷺ فقلت: كـذبت، فـإن رسول الله ﷺ أقرأنيها على غير ما قرأت، فانطلقت بـه أقـوده إلى رسـول الله ﷺ ، فقلت: إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرأنيها.

فقال رسول الله ﷺ أرسله، أقرئنا يا هشـــام، فقـــرأ عليه القـــراءة التـى سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلـــت، ثم قال: أقرئنا عمـــر، فقـــرأت التى أقرأنى، قال رسول الله ﷺ: هكذا أنزلت، إن هـذا القـرآن أنـزل عـلى سـبعة أحرف، ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾[1] (المزمل: ٢٠).

❁ ❁ ❁

آياتهـــــــا

عدد آياتها سبع وسبعون آية فى جميع القراء[2]. وعدد كلماتها ثمانمائة واثنتان وسبعون كلمة وحروفها: ثلاثة آلاف وسبعمائة وثلاثة وثلاثـون حرفـا[3]، وهـى السورة الثانية والأربعون فى ترتيب النزول بعد سورة (يس) وقيل سورة فاطر[4]. وهى السورة الخامسة والعشرون فى ترتيب المصحف.

❁ ❁ ❁

(١) البخارى برقم ٢٢٨٧ ومسلم برقم ٨١٨.
(٢) منار الهدى للأشمونى صـ١٩٨ وحاشية الشهاب على البيضاوى ٦ / ٤٠٥.
(٣) منار الهدى للأشمونى صـ١٩٨.
(٤) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى ١ / ٧٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

نزولهـــــا

نزلت بمكة كما فى صحيح البخارى عن القاسم بن أبى بزة أنه سأل سعيد بن جبر: هل لمن قتل مؤمنا معتمدا من توبة؟ فقرأت عليه ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الأنعام: ١٥١).

فقال سعيد: قرأتها على ابن عباس كما قرأتها على فقال: هذه مكية نسختها آية مدنية التى فى سورة النساء[١]. والسورة تقوم على الاستدلال على صدق رسول الله ﷺ من خلال معجزة القرآن.

❁ ❁ ❁

بين سورة النور والفرقان

فى خاتمة النور:

أ) توقير رسول الله ﷺ وتعظيمه:

جاء ذلك فى مظهرين:

الأول: عدم انصراف المؤمن مجلس رسول الله ﷺ إلا بإذنه.

﴿لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ (النور: ٦٢)، وذلك لضبط الأمور وتعظيمها مع القيادة الرشيدة.

الثانى: عدم مناداته باسمه المجرد ولا بكنيته، وإنما ينادى بلقب الرسالة ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ (النور: ٦٣).

- وجاء فى إفتتاحية سورة الفرقان فى مظهرين أيضًا:

الأول: وصف رسول الله ﷺ بوصف العبودية المضافة إلى الله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١).

الثانى: كون رسول الله ﷺ مبعوثا للعالمين، وكون رسالته عالمية، وهذه ميزة لم يعطها أحد من الأنبياء والمرسلين غيره، فقد صح عنه قوله:

---

(١) البخارى رقم ٤٤٨٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي... وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة[١]».

ب) **مهمة الرسول ﷺ العظمى الإنذار**.. جاء ذلك في خاتمة سورة النور في قوله: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٣)، والتحذير عن مخالفة رسول الله لون من ألوان الإنذار، وجاء بصيغة التعميم ليشمل التحذير عن المخالفات في: العقيدة والأحكام والأخلاق. ويدخل فيه الانصراف بدون إذن دخولاً أبديا.

وجاء النص على هذه المهمة في افتتاحية سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ١)، والشق الثاني يأتي ضمنًا في الإنذار، فإذا كان الإنذار للمخالفين لأوامره، فإن البشارة للمؤمنين به المتبعين لما جاء به من الهدى والنور.

جـ) **مظاهر من قدرة الله تعالى وعظمته وتفرده بالملك والتصرف:**

- جاء ذلك في خاتمة سورة النور في قوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ۖ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النور: ٦٤)، فالله سبحانه ملك السموات والأرض وما بينهما خلقًا وتقديرًا وتدبيرًا وإنهاءً وتدميرًا، وفي تقديم لفظ الجلالة بيان تفرده بذلك، وعلم الله المحيط بكل شيء، ومنه إحاطة بأحوالهم وما هم عليه من الصفات والأحوال والأعمال ليجازيهم بها يوم الرجوع إليه.
- وجاءت جملة من مظاهر التفرد والعظمة في إفتتاحية سورة الفرقان في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢)، فلله ملك السموات والأرض

(١) البخاري في صحيحه رقم ٣٢٨، ١ / ٨٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وحده لا شريك له فى ذلك – دل على ذلك تقديم الجار والمجرور المتعلقين بالخبر على المبتدأ – وهو المنزه عن الولد والشريك، فلا يعجزه شىء ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (يس: ٨٢).

وخلق المخلوقات بتقدير، ولا يكون إلا بناء على العلم بدقائق الأمور وجلائلها، ويستلزم الحكمة لوضع الشىء المقدر فى مكانه بناء على العلم المحيط.

د) وهناك وجوه من المناسبات بين السورتين النور والفرقان:

– فاشتملت سورة النور على كثير من الأحكام، كالزنا والقذف والإستئذان، والكشف عن مغيبات تبين بمعرفتها الخبيث من الطيب.. ثم كريم وعده للخلفاء الراشدين بالتمكين فى الأرض، وفضح المنافقين الذين كانوا يتسللون من مجلسه بغير إذنه، فكان مجموع ذلك فرقانا يعتضد به الإيمان، يشهد لرسول الله ﷺ بصحة رسالته، ويوضح عظيم قدره عند ربه.

جاء فى سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ (الفرقان: ١)... «فهو القرآن الفارق بين الحق والباطل، والمطلع على ما أخفاه المنافقون، وأبطنوه من المكر والكفر[1].

– جاء فى سورة النور الدلائل على توحيد الله سبحانه وتعالى من الآيات الكونية. وجاء مثلها فى سورة الفرقان. فمن ذلك.

أ) جاء فى سورة النور قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ﴾ (النور: ٤٣).

وجاء فى سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحۡىِۦَ بِهِۦ بَلۡدَةً مَّيۡتًا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ (الفرقان: ٤٨ – ٤٩).

---

(١) نظم الدرر: البقاعى ١٣/ ٣٣٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ب) جاء فى سورة النور قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ﴾ (النور: ٤٥)، وجاء فى سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٤).

- جاء فى كلتا السورتين مصير أعمال الكافرين يوم القيامة.

فجاء فى سورة النور قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ ﴾ (النور: ٣٩)، وجاء فى سورة الفرقان قوله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾[1] (الفرقان: ٢٣).

❁ ❁ ❁

وجوه الإعجاز فى السورة

السورة تقوم على إثبات صدق رسول الله ﷺ من خلال القرآن الكريم المعجزة العظمى لرسول الله ﷺ. فوجوه إعجاز القرآن الرئيسة الأربعة موجودة فى السورة:

- فالإعجاز البيانى من خلال نظمه ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ (الفرقان: ٣٢).

- والإعجاز العلمى فى أسرار مخلوقاته ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان: ٦)، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ (الفرقان: ٥٣).

(١) التفسير المنير: الزحيلى ١٩ / ٦.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- والإعجاز الغيبي بذكر أخبار الأنبياء والأمم السابقة كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ (الفرقان: ٣٥). ﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ﴾ (الفرقان: ٣٧). ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴾ (الفرقان: ٣٨). ﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴾ (الفرقان: ٤٠).

- والإعجاز التشريعي بذكر الهدايات القرآنية في العقائد وأصول التشريع والأخلاق كما في قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ (الفرقان: ٦٣)، ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ ﴾ (الفرقان: ٦٧)، ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ ﴾ (الفرقان: ٦٨)، ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ (الفرقان: ٧٢)، فالفرقان وهو المعجزة يثبت صدق الرسول ﷺ من خلال السورة بذكر أوجه إعجازه جلية واضحة.

❁ ❁ ❁

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بين الافتتاحية والخاتمة

أ) الحديث عن المعبود بحق وبعض صفاته، والحديث عن الآلهة المزيفة وبيان عجزها.

- جاء ذلك في إفتتاحية السورة في قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢).

أما الحديث عن الآلهة المزيفة العاجزة فجاء في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان: ٣).

والإله الحق ينفرد بالملك والتدبير والتقدير، أما آلهتهم المزيفة فلا تملك دفع الضر، عن نفسها وهي مخلوقة لغيرها، ولا تدفع عن نفسها الموت، ولا تهب الحياة، فكيف تتخذ آلهة من دون الله تعالى؟!

- وجاء الحديث عن المعبود بحق في خاتمة السورة بالثناء على عابدين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ (الفرقان: ٦٨).

وجاء الحديث عن المعبود الباطل في خاتمة السورة بالوعيد على عابديه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (الفرقان: ٦٨ - ٦٩).

ب) الحديث عن اليوم الآخر في الافتتاحية في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ (الفرقان: ٣).

والحديث عن اليوم الآخر في الخاتمة في قوله تعالى: ﴿ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴾ (الفرقان: ٦٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جـ) الحديث عن الرسالة في الافتتاحية في قوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١)، وجاء الحديث عن الرسالة في الخاتمة في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ (الفرقان: ٧٥)، وهي مهمة الرسول ﷺ البشارة، والمهمة الأخرى النذارة، ذكرت في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ (الفرقان: ٧٧).

❁ ❁ ❁

صفات الإله الحق وعجز الآلهة المزيفة

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ (الفرقان: ١ - ٣)

إجمال المعنى

افتتحت السورة بالثناء على الله تعالى الذي تنامى خيره وتكاثر فشمل كل شيء، ومن أعظم الخير المتنامي إنزال القرآن على صفيه وخليله وعبده ونبيه خاتم الأنبياء محمد ﷺ ليبلغ عن ربه ما أوحى إليه وينذر به العالمين، وفيه الميزان الذي يفرق به بين الحق والباطل، وبين الصواب والخطأ، ويميز بين منهج السعادة والنجاة، ومنهج الشقاوة والهلاك.

ومن أوائل المبلَّغين المنْذَرين أولئك الذين اتخذوا معبودات صنعوها بأيديهم ثم أضفوا عليها بأوهامهم القدسية، وهم يدركون عجزها المطلق عن

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دفع الضر عن أنفسها أو جلب النفع لها، ناهيك عن دفع الضر أو إيصال النفع إلى عابديها، ففاقد الشيء لا يعطيه، ولو أنهم فكروا في أنفسهم وما وهبهم الله من قدرات وطاقات لأدركوا أنهم أفضل من تلك الأصنام والأوثان، فإنها عاجزة عن الفهم والحركة والتصرف ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾ (الأعراف:١٩٤-١٩٥)، إن من شأن المعبود الحق ملك السموات والأرض خلقًا وإيجادًا من العدم، وأن يكون غنيًّا عن مساعدة غيره في تدبير هذا الملك، وألا ينازعه أحد في ملكه، وأن تكون مخلوقاته قد وجدت لأداء وظائفها بحكمة وعن سابق علم محيط فقدَّرها خالِقُها تقديرًا.

وأن يكون له مطلق المشيئة والإرادة في مخلوقاته إذا أراد إنهاء وجودها، أو أراد بعثها للمحاسبة والجزاء، فهل تقدر آلهتهم المزيفة على شيء من ذلك؟ تضمنت افتتاحية السورة الحديث المجمل عن قضايا العقيدة الإسلامية الأساسية.

- **الألوهية**: فبعد تقديس الله عز وجل، جاءت أربعة أوصاف تؤكد التنزيه والتقديس للمعبود بحق. ﴿ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الفرقان: ٢)، ﴿ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ (الفرقان: ٢)- ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ ﴾ (الفرقان: ٢)- ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٢)، وذكرت الافتتاحية: بطلان آلهتهم المزيفة من خلال أربع صفات:

١ - ﴿ لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا ﴾ (الفرقان: ٣).

٢ - ﴿ وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (الفرقان: ٣).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٣ - ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ (الفرقان: ٣).

٤ - ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ (الفرقان: ٣).

- **البعث بعد الموت** : وتحدثت عن عقيدة البعث بعد الموت فى لمحات خاطفة كما تكرر الحديث عن اليوم الآخر، والبعث، والنشور، من خلال آيات السورة باختصار.
- **الرسالة والرسول والمعجزة** : فقد ذكرت الرسالة المتضمنة فى (الفرقان)، وذكر الرسول الذى أنزل عليه الفرقان (عبده) وذكرت المعجزة وأوجه إعجازها. وسيأتى تفصيل ذلك.

الاستنبـــــاط

- إثبات صفات الجلال والكمال والعزة لله سبحانه وتعالى، وتنزيهه عن صفات النقص والعجز، وعن الشريك والولد – أساس عقيدة المؤمنين.
- عموم رسالة محمد ﷺ للعالم الإنس والجن ومن بلغة دعوة محمد ﷺ ولم يؤمن به فهو فى النار.
- بطلان عبادة من اتخذ آلهة لا تتصف بصفات الجلال والكمال، أو تعجز عن الخلق والتدبير والتقدير، وعن الإحياء والإماتة والبعث بعد الموت.

❁ ❁ ❁

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شبهاتهم حول القرآن وردها

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٦ ﴾ (الفرقان: ٤ - ٦)

❁ ❁ ❁

تمهيد

بعد الثناء على الله تعالى بما هو أهله، وذكر النعمة العظمى على عباده بإنزال كتابه على عبده محمد ﷺ ليكون للعالمين نذيرًا، وبيان عجز آلهتهم التى يعبدونها من دون الله، وضلال ما هم عليه من الشرك والإلحاد، ذكر موقف المشركين من القرآن العظيم، الذى أنزله رب السموات والأرض، وخاطب به الإنسانية، وكان المفترض منهم وهم العقلاء الأذكياء أن يتدبروا معانى هذا الكتاب، وما يدعوهم إليه، فإن من شأن العاقل إذا خوطب أن يلقى السمع لما يسمع، وأن يتدبر مضمون الكلام الموجه إليه، ليتخذ حياله الموقف الحكيم، ولكن القوم اتخذوا حيال القرآن موقفًا مخالفًا تمامًا.

❁ ❁ ❁

إجمال المعنى

آيات القرآن كالأضواء الكاشفة لظلمات جهل المشركين وفساد عقولهم وسوء تصرفاتهم، فأرادوا أن يطفئوا نور الله بكل ما أوتوا من مكر وافتراء، فقالوا: إن هذا القرآن اختلقه محمد بتلقيه ببعض أساطير الأولين، ثم صاغها محمد بأسلوبه ونسبها إلى ربه ليضفى عليها صفة التقديس، وتكررت هذه الفرية من القوم كما تحداهم القرآن الكريم وأظهر عجزهم، ولكن موضع الضعف فى مقولتهم هذه من جانبين:

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأول: أن محمدًا ﷺ الذى جاء بالقرآن لا يدعيه أنه منه وإنما نسبه إلى ربه عز وجل، وهم لم يجربوا عليه كذبًا قط. ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: ٣٣).

الثانى: أن محمدًا واحد منهم ومداركهم العلمية التى تلقاها من بيئته، لا تزيد على ما كان عند القوم، بل لعل بعض القوم كان لديه من الاطلاع والقدرات الكسبيه أكثر منه، كقول الشعر والاطلاع على أخبار الماضيين، وكان لبعضهم أسفار إلى أقوام وشعوب مما أكسبهم ثقافة لا عهد لقريش بها، مثل النضر بن الحارث الذى كان يقول: إن لديه من قصص رستم واسفنديار وأساطير الفرس ما يضاهى به قصص القرآن، ومحمد ﷺ معروف لديهم بأميته.

حاول القوم تغطية هذه الفجوة فى ادعائهم بأن قالوا: إنه إختلفه بالتعاون مع بعض أتباعه، حيث زودوه بالمعلومات، ومادة القصص، وصاغها محمد ﷺ بأسلوبه البيانى البليغ.

لقد ردّ القرآن الكريم قولهم هذا بقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ (يونس: ٣٨).

إن الكلام المفترى لا يكلف صاحبه شيئًا سوى السرد بعد تذويقه وإضفاء المسحة الجمالية عليه، فلو كان القرآن مختلقا مفترى من عند أحد من البشر لكانوا أقدر الناس على الإتيان بمثله، لأن طبائعهم تلائم الاختلاق، والكذب، بخلاف نفس محمد ﷺ المطبوعة على الصدق والأمانة والاستقامة.

أما الذين نسبوا إليهم مساعدة محمد ﷺ والتعاون معه فى الخفاء فقد ذكروا منهم: يسّار مولى الحضرمى، وعداس مولى حويطب بن عبد العزي، وجبر مولى ابن عامر.

ولكن لماذا اختاروهم من الموالى الغرباء عن قريش؟

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لقد اختاروهم من المغمورين المجهولين لعل الغربة تجد قبولا لدى العامة من الناس، ولدى الغرباء من قريش فيتوهموا أن هؤلاء الموالى على علم لا تعلمه قريش فاستعان بهم محمد ﷺ .

ولكن الذى غفلوا عنه، أو تغافلوا، أن يوجهوا لأنفسهم سؤالًا وهو: لو كان الموالى يملكون علوم الأولين والآخرين، وعلوم الكون وعلوم الأديان أما كان أحق لأنفسهم دون محمد ﷺ ؟

ثم إن القرآن ليس كله قصصًا وأخبارًا، بل جاء بشرائع تنظم مجالات الحياة كلها بأسلوب معجز، وتصاريف من القول أعجزت فصحاء الضاد، فكيف ينسجم مع زعمهم أن محمدًا تلقاه من البشر ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل: ١٠٣).

إن ما اشتمل عليه آى الذكر الحكيم من حقائق الكون وسننه، وما يتعلق ببدء الحياة على الأرض، وما بث فيها من المخلوقات، وما يتعلق بمستقبل ما يجرى فى قادمات الأيام... دليل على أن القرآن نزل من الذى أحاط بكل شىء علما بأسرار الكون والمخلوقات فى السماوات والأرض، ولم ولن يستطيع أحد أن يبطل حقيقة ذكرها القرآن الكريم ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان: ٦).

إن الذين يفترون الكذب ويزعمون أن مصدر القرآن بشرى يعرضون أنفسهم لعذاب الله الأليم، ولولا سعة مغفرة الله ورحمته بعباده لأنزله بهم، ولكن الله رحم أمة الدعوة بتأجيل حسابهم إلى يوم القيامة، لعل بعضهم يعود إلى الحق والصواب، فيستغفر الله ويتوب إليه عما كان عليه من الضلال.. ووجود رسول الله ﷺ بين ظهرنيهم أمان لهم من العقوبة العاجلة ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٣).

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دروس وعبر وهدايات

- العناد والجحود يلجئ صاحبه إلى الوقوع فى المتناقضات، فالمشركون يقولون بصدق محمد ﷺ ويصرحون له (ما جربنا عليك كذبًا قط).

ثم يتهمونه بأكبر فرية باختلاق القرآن من نفسه، ونسبته إلى الله تعالى.

- شبهات الكافرين حول القرآن الكريم سطحية لا تعتمد على عقل، ولا تصمد للمناقشة والدحض. سواء ما أثارتها قريش، وما يثيرها اليوم المستشرقون وأذنابهم المستغربون، ففى أسلوب القرآن الكريم المعجز ومضامينه الهائلة وتحديه المستمر إلى يوم الدين حجة لمن رام الحق وبحث عنه.

مشركو قريش أكثر إنصافًا من المستشرقين اليوم، لأنهم سلموا بأمية الرسول ﷺ فقالوا عنه إنه اكتتب القرآن أى طلب كتابة القرآن من غيره، وقالوا إن قصص القرآن تملى عليه، أى يقرؤها غيره عليه؛ لأنه لم يقرأ فى حياته كتابًا ولم يخط بيده مكتوبًا.

أما المستشرقون اليوم فيحاولون جاهدين أن يثبتوا أن محمدًا ﷺ كان قارئًا كاتبًا، وأنى لهم ذلك؟

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ ﴾

(الفرقان: ٧ – ١٠)

تمهيـــــــــد

بعد أن أثار المشركون الشبهات حول الوحى المنزل، أثاروا شبهات حول الرسول الذى أنزل عليه الوحى، وهذا الترتيب ينسجم مع الترتيب فى قوله تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ (الفرقان: ١)، حيث ذكر الفرقان أولا، ثم الرسول المنزل عليه الوحى.

❁ ❁ ❁

إجمـــال المعنـــى

شبهة الأقوام للأنبياء والمرسلين قديمة قدم الرسالات، فكل قوم أثاروا هذه الشبهة حول نبيهم:

قال قوم نوح عليه السلام لنبيهم: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٢٤).

وقال قوم شعيب عليه السلام لنبيهم: ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (الشعراء: ١٨٦).

وقال قوم صالح عليه السلام لنبيهم: ﴿ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ ۙ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾ (القمر: ٢٤).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهكذا جميع الأقوام: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴾ (التغابن: ٦).

واتبعت قريش سنن من قبلهم من الأقوام، فاستغربوا أن يكون الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، ويعتوره من الأعراض والهيئات ما يعتور البشر جميعًا.

وهذا جهل بحكمة الله: فإن الإنسان خلق لأداء مهمة على وجه الأرض وهي عبادته واستخلافه في عمارتها كما ذكر القرآن الكريم ذلك ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات: ٥٦)، ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ (فاطر: ٣٩)، ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ (هود: ٦١)، بهذا يتبين لنا جهل الأقوام بحكمة الله سبحانه وتعالى: في الرسالات، وجهل بقيمة الإنسان في ميزان الله العلي الحكيم.

ولمعرفة المهمة المنوطة بالإنسان والتكاليف لابد من تبليغه بها وبيانها له، والطرق المتصورة في التبليغ هي:

الأول: أن يبلغ كل فرد مباشرة من ربه، وهذا ينافي الحكمة من الابتلاء. إذ الابتلاء يقتضي الإختبار في الإرادة.

الثانية: أن يرسل إليهم رسولاً من غير جنسهم من الملائكة أو الجن، فإن كانوا على صورتهم الأصلية، لا تتحقق الغاية من التبليغ، لأنهم لو أتوا على صورتهم الأصلية لا يتحقق معه التلقي والبيان، والتطبيق العملي، والقدوة حيث الانسجام بين التكوينين مفقود، بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ (الأنعام: ٨ – ٩)، وإذا ظهر لهم على صورة البشر كانت مطابقته للطريقة الثالثة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الثالثة: أن يكون الرسول من جنس البشر وهى الطريقة التى يتحقق معها المراد من إرسال الرسل.

إن الحكمة الإلهية لا تتحقق إلا أن يكون رسول البشر من البشر- واحد من البشر يحس إحساسهم، ويتذوق مواجدهم، ويعانى تجاربهم ويدرك آمالهم وآلامهم، ويعرف نوازعهم وأشواقهم، ويعلم ضروراتهم وأثقالهم.. وهم من جانبهم يجدون فيه القدوة الممكنة التقليد... فيكون هو بشخصه ترجمة حية للعقيدة التى يحملها إليهم... ولو كان ملكا ما فكروا فى عمله، ولا حاولوا أن يقلدوه، لأنهم منذ البدء يشعرون أن طبيعته غير طبيعتهم، فلا جرم أن يكون سلوكه على غير أمل فى محاكاته، ولا شوق إلى تحقيق صورته .

هذه سنة الله فى الرسالات أن يكون الرسول من جنس المرسل إليهم يقول جل شأنه: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾ (الإسراء: ٩٤ - ٩٥)، أما جهلهم بقيمة الإنسان فى ميزان العلى الحكيم:

فإن الإنسان خلق من مادة الطين لأنه مهيأ للحياة على هذه الأرض ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ (طه: ٥٥).

وجاء التكريم الربانى من نفخة الروح التى استحق بها سجود الملائكة ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ (ص: ٧١ - ٧٢)، بهذه النفخة الإلهية تميز، واستخلف فى الأرض، وأودع الاستعداد للاتصال بالملأ الأعلى، فلا مجال للاعتراض على بشرية الرسل إذا أدركنا سنة الله فى الرسالات، ومكانة الإنسان فى ميزان الله سبحانه.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن خلال اعتراضهم على بشرية الرسل نجد أن لهم قيما معينة ينطلقون منها، ففى تصورهم أن يكون الرسول مستغنيا عن الطعام والشراب، وإذا احتاج إليهما فينبغى أن يكون مكفيا عن ذلك بأتباعه فلا يحتاج إلى المشى فى الأسواق للتكسب والسعى على الرزق.

أو يلقى عليه كنز من السماء فينفق على نفسه وأتباعه لتظهر لهم المزية على غيرهم، فإن لم يكن شيء من ذلك فلا أقل من جنة (بستان من نخيل وأعناب).

يأكل منها، وإن احتاج إلى حماية ونصرة مثلاً نزل ملك ليكون نذيرًا على معانديه يخوفهم من البطش بهم.

وكل ما اقترحوه أمور مادية منبثقة من قيمهم المادية التى يزنون بها الرجال، فمنتهى نظرهم أن يكون المرء فى هذه الحياة وافر المال كثير الأتباع، أما الكمالات النفسية والسمو الروحى والخلقى فلا وجود لها فى موازينهم. هذا ما قاله بنو إسرائيل قبل ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ (البقرة: ٢٤٧)، وقالت قريش: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١).

وإذا لم تتحقق فى الرسل مواصفاتهم، فليبحثوا عن سبب دفعه إلى هذه المقولة، وعرض نفسه للصدام مع القوم وقد كان فى غنى عن ذلك، فى تصورهم لا يقدم على هذا الفعل إلا رجل فقد عقله، أو غلب عليه بهدف بما لا يعرف ويقول مالا يعقل ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ (الفرقان: ٨).

إنه لعجب حال هؤلاء القوم، كانوا يصفون محمدًا قبل البعثة بالصادق الأمين، ولم يجربوا عليه كذبًا، ولم يعرفوا عنه طيشًا فى التصرفات ولم يلحظوا عليه انحرافًا فى السلوك، ولكنهم اليوم تاهوا واحتاروا فى اختيار الأوصاف والألقاب

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

السيئة لإلصاقها بجنابه الكريم، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (الكهف: ٥)، لا تستند على حقيقة معقولة ولا على سبب وجيه. وإنما تبرير لبقائهم على معهودات الآباء والأعراف التى نشأوا عليها... لذا جاء الاستغراب من مقولاتهم هذه ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ (الفرقان: ٩)، ويأتى الرد مجملًا لينتقل إلى البيان الدافع الحقيقى لمقولتهم ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾﴾ (الفرقان: ١٠ - ١١).

❁ ❁ ❁

دروس وعبر وهدايات

- القيم والموازين الربانية مختلفة عن موازين أهل الدنيا، فالاصطفاء الربانى لرسله يكون للكمالات الروحية والخلقية، أما المقاييس البشرية فتعتمد على كثرة المال والأتباع والمنصب.
- مشروعية دخول الأسواق للكسب للأنبياء وأتباعهم، ولا يؤثر ذلك على مكانتهم الرفيعة، بل هم قدوة للناس فى الكسب الحلال وأداء الأمانة وتطبيق أحكام الله فى المعاملات.
- الاتهامات الباطلة لا تؤثر على أهل الحكمة والصلاح والحصافة والعقل لأن واقعهم يكذب تلك الاتهامات والافتراءات، ولا تحتاج إلى جواب لذا جاء الرد الإلهى ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ (الفرقان: ٩).
- أراد الله سبحانه وتعالى لأنبيائه الذكرى الخالدة بمآثرهم الخلقية، وعطائهم الثر للبشرية: ليكونوا قدوة الأجيال إلي يوم القيامة.

❁ ❁ ❁

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الدوافع الحقيقية وراء تكذيبهم

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ (الفرقان: ١١ - ١٩).

تمهيـــــــــد

تحدثت الآيات الكريمة السابقة عن شبهاتهم حول الرسول ﷺ ثم تأتى هذه الآيات إلى الحديث عن السبب الحقيقى لتكذيبهم، فإن تكذيبهم لرسول الله ﷺ ودعوته مبنى على إنكار الساعة.. وجاء تقرير الساعة مفصلا بسرد وقائع تقع بعد قيام الساعة، إمعانًا فى التقرير والتوضيح، فكان وقوع الساعة والبعث بعد الموت أمر مفروغ منه، ولكن قد يلتبس عليهم صور أهل الشقاء فجاء ذكر مصير المكذبين بالساعة والسعير المتقد عليهم...

❁ ❁ ❁

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إجمـــال المعنـــى

إن الدافع الحقيقى للمشركين إلى تكـذيب الرسـول ﷺ وإثـارة الشـبهات حوله هو إنكارهم قيام الساعة، لأن قيام السـاعة يعنـى هـدم لـذاتهم، وتنغـيص متعهم الهابطة، ولأن البعث بعد الموت يعنى محاسبتهم على جرائر فى الحياة الدنيا. ولم تورد الآيات الكريمة الأدلة العقلية على قيام الساعة – كـما جـاءت فى سـياق آخر – وإنما ذكر جزاء من يكذب بها، فالنار المستعرة مهيأة معدة لهم، إذا ظهـرت للناظر وكانت على مرأى منهم سمعوا الدوى الهائل الذى يدور فى جنباتهـا تكـاد تميز من الغيظ من أقوال المجرمين وأفعالهم ومواقفهم مـن رسـل الله ورسـالاتهم كلما اقترب منها فوج شهقت لتجذبهم إلى جوفها، وزفرت لتنفس عـما فى جوفهـا من الغيظ، إنه لمنظر رهيب ، ومصير تعيس، ليس منه مفر، فهـم يساقـــون إليهـا سوقا، يُجرّون إليها بالسلاسل مقرنين بالأصفاد، يكبـــون فيها عـلى وجوههـــم ومناخرهم، تتعاظم أجسادهم لتتسع دائرة مسّ العـــذاب حتـى يكـــون ضرس أحدهم مثل جبل أحد، وغلـــظ جلده مسيرة ثلاث[1]، ويضيـــق عليهـــم المكان حتى يكون كالزج للرمح، وفوق كل ذلك قرنت أيـديهم إلى أعنـاقهم بالأصـفاد والأغلال، فليس لديهم إلا الدعاء بالويل والثبور على أنفسهم...

وحسب عـادة القـرآن فى التـزاوج بـين الترهيـب والترغيـب، والإنـذار والبشارة جاء ذكر ما ينتظر المؤمنين المتقين من النعـيم المخلـد بعـد ذكـر مـا أعـد للأشقياء التعساء المكذبين بالساعة.

---

(١) أنظـر مـا رواه مسـلم فى صـحيحه – بـاب النـار يـدخلها الجبـارون، والجنـة يـدخلها الضعفاء ٨ / ١٥٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويأتى ذلك فى صيغة الاستفهام للتوبيخ والتقريع، ولما كان الدافع الحقيقى للمشركين فى التكذيب بالساعة هو تعلقهم بمتعهم الدنيوية ورغبتهم فى الاستمرار عليها.. والإيمان بالساعة معناه انتهاؤهم وزوالهم عنها.

جاء التأكيد على خلودهم فيها (لهم فيها ما يشاءون خالدين) وذلك وعد من الله عز وجل قطعه على نفسه ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ (النساء: ١٢٢).

﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴾ (الفرقان: ١٦)، وبعد عرض تلك الصور المتقابلة لشقاء التعساء، ونعيم السعداء، يتجه السياق إلى تحديد المسؤوليات فى الحياة الدنيا عن إضلال الضالين الناكبين عن طريق الحق.

وتعرض الصورة الجديدة وقد حضر العابدون ومعبودوهم كل عابد وما عبد من دون الله، يقفون فى صعيد واحد، ويوجه السؤال إلى المعبودين سواء أكانوا على علم بعبادة هؤلاء لهم أم لم يكونوا عالمين ولا راضين. ﴿فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴾ (الفرقان: ١٧)، وبدهى فى هذا اليوم قول الحق والصدق، فلا مجال للإنكار أو الإخفاء، فأما المعبودون من دون الله من الذين لم يرضوا بعبادة الناس لهم كالملائكة والأنبياء والصالحين والمخلوقات التى ليس من شأنها النطق فى الحياة الدنيا كالكواكب والأشجار والحجارة فتقول: ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ ﴾ (الفرقان: ١٨)، ننزهك ونقدسك عن سفه السفهاء وجهل الجهلاء، وإننا كنا فى حياتنا الدنيا نعبدك ونثنى عليك الخير كله، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، فكيف نتخذ من دونك أولياء، وكيف ندعو الناس إلى عبادتنا ونحن مشفقون من هذا اليوم (إننا نعلم أنه لا ينبغى لنا فكيف نحاول[1]).

(١) التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور ١٨ / ٣٣٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وإلى جانب توجيه الخطاب العام للمعبودين عامة يخص بعض الأجناس والأفراد بخطاب خاص فمن الذين عبدوا من دون الله الملائكة ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (سبأ: ٤٠ - ٤٢)

وممن عُبِدَ من دُون الله عيسي عليه السلام فيوجه له الخطاب ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ (المائدة: ١١٦ - ١١٧).

أما الذين رضوا بعبادة العباد لهم، فلهم شأن آخر حيث يتبرأ كل فريق من الآخر ويحمله المسؤولية ويفصل بينهم فاصل من الكره والبغض ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ (الكهف: ٥٢)، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ (البقرة: ١٦٦-١٦٧)، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ (فصلت: ٢٩)

إنها صورة من الخذلان والندم والحسرة، ولكنها لا تنفع أصحابها يومئذ لأنهم فى الدنيا كانوا فى بطرهم واستمتاعهم بملذاتهم الهابطة، وقلبوا منح الله لهم

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ورغد العيش إلى وسائل للبغى والطغيان والأشر والبطر، ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا﴾ (الفرقان: ١٨)، فاستحقوا بصنيعهم هذا الهلاك والبوار؛ لأن نفوسهم خلت من الخير، وأصبحت قلوبهم قاسية، وعقولهم مظلمة، كالأرض البور، والصحراء القاحلة.

ويعود السياق مرة أخرى إلى تبكيت الضالين مرة أخرى، كيف كنتم تحملون هؤلاء المعبودين مسؤولية ضلالكم؟

هاهم قد كذبوكم فى قولكم، ولم يأمروكم بشىء مما نسبتم إليهم فما التوجيه عندكم عما كنتم عليه من ضلال، وما المعدل والمصرف الذى يصرفكم عن المصير المحتوم ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَٰقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ (الكهف: ٥٣)، إنه العذاب الكبير للظالمين الذين أتخذوا من دون الله آلهة، وكذبوا بكتابه، وعادوا رسوله، ولم يرفعوا لدعوة الحق رأسًا ولم يلقوا لنداء الله أذنا صاغية.

ففى الآيات استطراد بذكر ما يجرى للمكذبين عند قيام الساعة التى كذبوا بها، وكان إنكارها الدافع الحقيقى لإثارة الشبهات حول القرآن المنزل، والرسول المبلغ، فإثارة الشبهات من باب ذر الرماد فى العيون وإخفاء الدافع الحقيقى للتكذيب.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دروس وعبر وهدايات

- الدافع الحقيقى لتكذيب المشركين بالرسالة والنبوة هو إنكار يوم القيامة، لعدم رغبتهم فى تصور زوال متعهم وملذاتهم فى الحياة الدنيا، ومحاسبتهم عليها يوم القيامة، لذا كان رسول الله ﷺ يقول: «أكثروا من ذكر هازم اللذات[1]» أى الموت، حتى لا تطمئن النفس إلى هذه الحياة فتتقاعس عن العمل للآخرة.
- الروابط والعلائق بين أصحاب المصالح الدنيوية، وبين الأتباع والمتبوعين تنقطع ويعادى بعضهم بعضًا يوم القيامة إلا المتقين ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف: ٦٧)، فلا رابطة يوم القيامة إلا رابطة الإيمان والتقوى والعمل الصالح.
- الجنة والنار مخلوقتان موجودتان، ففى الجنة النعيم الخالد والمسرات الدائمة وفيها مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وفى النار عذاب أليم ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ (النساء: ٥٦).

يُصَبُّ من فوق رؤوسهم العذاب، ويأتيهم العذاب من كل مكان وما هم بميتين يتمنون الموت للخلاص من شدة العذاب فلا يحصل لهم.

- وعد الله سبحان وتعالى المتقين بالخلود فى دار النعيم، ووعد الله محقق وقد أوجبه على نفسه تفضلاً وتكرمًا، وعلم عباده الدعاء بذلك ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾ (آل عمران: ١٩٤)، ولقن الملائكة هذا الدعاء: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ ﴾ (غافر: ٨).

❁ ❁ ❁

(١) رواه الترمذى رقم ٢٤٦٠. وأحمد فى مسنده برقم ٢ / ٢٩٣. والنسائى – فى الجنائز.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سُنة الله فى اختيار المرسلين وعادة المكذبين المستكبرين

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ وَعَتَوۡ عُتُوّٗا كَبِيرٗا ٢١ يَوۡمَ يَرَوۡنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٢٢ وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا ٢٣ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ يَوۡمَئِذٍ خَيۡرٞ مُّسۡتَقَرّٗا وَأَحۡسَنُ مَقِيلٗا ٢٤ وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ٢٥ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ لِلرَّحۡمَٰنِۚ وَكَانَ يَوۡمًا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ عَسِيرٗا ٢٦ وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩ ﴾ (الفرقان: ٢٠ - ٢٩)

تمهيـــــــــد

ذكرت الآيات السابقة الدافع الحقيقى لتكذيبهم القرآن الكريم ومعاداتهم رسول الله ﷺ ، واستطرد إلى ما ينتظرهم يوم القيامة من التوبيخ وإقامة الحجة عليهم والعذاب المهين، عاد السياق إلى رد شبهتهم مباشرة ببيان سنة الله فى المرسلين، ثم استطرد السياق إلى بيان عتوهم واستكبارهم وتماديهم فى طلب الخوارق. بإنزال الملائكة، أو رؤية الله سبحانه، وتبين أن رؤيتهم الملائكة يعنى وقوع القيامة، ولا يدرون ماذا ينتظر المجرمين أمثالهم حين يتغير نظام الكون وتنزل الملائكة حيث يتبرأ الطغاة بعضهم من بعض وهم يعضُّون أصابع الندم على فوات الإيمان بالرسول وصحبته.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إجمـــال المعنـــى

يوجـه الخطـاب لرسـول الله ﷺ أن لا يلتفـت إلى اعتراضـات القـوم وشبهاتهم، فإن سنة الله سبحانه جارية عليه وعلى قومه، فكـل مـن اصطفـاه الله جل وعلا لرسالته ابتلى بهذا التكليف، وابتلى قوله بـه ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡ﴾ (الأحقاف: ٣٥)، إن هذه الدار دار ابتلاء وفتنـة فـإن رسول الله ﷺ فتنة للمشركين إذ زعموا أن حاله مناف للرسـالة فلـم يؤمنـوا بـه، وكان حال المؤمنين فى ضعفهم فتنة للمشـركين إذ ترفعـوا عـن الإيـمان بالـدين الذى يسوّيهم بهم، فقد كان أبو جهل، والوليد بن المغيرة، والعاص بـن وائـل، وأضرابهم يعلمون: إن أسلموا وقد أسلم قبلهم عمار بن ياسر، وصهيب وبـلال، فإن السابقة لأولئك. وكانوا يعرضون عـلى رسـول الله ﷺ إبعـادهم عـن مجلسـه حتى لا يعيروا بهم إن جلسوا فى مجلس كانوا فيه.

فكان الرد الحاسم لمطالبهم وأطماعهـم ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ مَا عَلَيۡكَ مِنۡ حِسَابِهِم مِّن شَيۡءٖ وَمَا مِنۡ حِسَابِكَ عَلَيۡهِم مِّن شَيۡءٖ فَتَطۡرُدَهُمۡ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٢ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣﴾ (الأنعام: ٥٢ - ٥٣).

لقد أعمى العناد والكبر منافذ النور إلى قلوبهم الخاوية، فلا يـدرون سـنن الله فى هذه الحياة الدنيا ولا يعرفون الممكـن مـن غـير الممكـن، ولا يدركـون عواقب الأمور وما يترتب عـلى مطـالبهم؛ يطلبـون إنـزال الملائكـة عليهـم، والملائكـة لا تنزل على الأرض إلا بمهمـة، إما التأييـد والنصـرة لأوليـاء الله، أو إنزال العذاب على أعـداء الله وهـؤلاء القـوم يعرفـون أنفسهـم فليسـوا بأولياء الله فتنزل الملائكة عليهم، ليس فى صالحهم...

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وطلبوا ثانية أن يروا ربهم، وهذا الطلب نابع عن جهلهم بالنبوات والرسالات، فقد طلب بعض بنى إسرائيل هذا الطلب فقد جاء على لسانهم ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾ (البقرة: ٥٥)، إنهم سيرون الملائكة يوم القيامة، ولكنها رؤية تسوؤهم حين يرون زبانية العذاب يسوقونهم إلى النار، فلا بشرى يومئذ للمجرمين، ويبحثون عن ملجأ ومجير، ولا ملجأ ولا مجير، ويقولون عوذًا معيذا(١).

أما اغترارهم ببعض ما كانوا يفعلونه فى الجاهلية من إطعام الطعام، وإقراء الضيف، وسدانة الكعبة، وخدمة الحجيج، فقد عُوِّضوا عنها فى حياتهم الدنيا بالصحة والجاه، والأمن فى الديار، فلا وجود لها فى الآخرة، أما أصحاب التوحيد والعمل الصالح، فهم آمنون مستقرون فى أحسن هيئة، وفى خير مقام، وأفضل مقيل، فإن مالك الملك المتفرد فيه قرّب أهل التوحيد فى هذا اليوم وأكرمهم، وأبعد أهل الشقاء وأهانهم فتراهم فى هذا اليوم ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (الفرقان: ٢٧ – ٢٨)، فى هذا اليوم تأكل الحسرة قلوبهم، بعض أحدهم على يديه ندمًا وحسرة على الفرصة التى واتته ففاتته فلم يتبع سبيل الرسول، لقد كان قرناء السوء يوغرون صدره على الرسول ﷺ ويحولون بينه وبين نور القرآن، فأين هم الآن؟ لقد تخلوا عنه، ليته لم يتخذهم أخلاء ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (الزخرف: ٦٧).

❁ ❁ ❁

(١) قال الخليل وأبو عبيدة: كان الرجل إذا رأى الرجل الذى يخاف منه أن يقتله فى الأشهر الحرم يقول له: حجرًا محجورًا: أى حرام قتلى، وهى عوذة – التحرير والتنوير: ١٩ / ٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دروس وعبر وهدايات

- سنة الله سبحانه وتعالى فى الأنبياء والمرسلين واختيارهم من البشر لتتحقق الحكمة من بعثتهم وكونهم يأكلون ويشربون، ويتكسبون فى الأسواق لا يتنافى مع مكانتهم عند الله وكونهم من خير البشر، فامتيازهم عن غيرهم فى الاتصاف بالكمالات النفسية والخلقية.
- الدنيا دار ابتلاء وامتحان لكل الناس، فالأنبياء والمرسلون مكلفون بأداء رسالات ربهم فهم مبتلون بها، والأمم مكلفة بالإيمان بربهم مبتلية بهم، وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار المجاشعى أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم فى خطبته: «ألا إن ربى أمرنى أن أعلمكم ما جهلتم.. وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلى بك[1]».

وكذلك الابتلاء والفتنة لسائر الناس، فالصحيح فتنة للمريض، والغنى فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغنى، فعلى كل واحد أن يتقى الله ويصير على الحق، ولا يحسد غيره، ولا يسخر منه، والله يصير بهم جميعا.

- الجاحد المعاند يتفنن فى مطالبه لتبرير موقفه على ما هو عليه من الكفر، ولو أعطى كل طلب لم ليغير موقفه، لأنه يريدا التعجيز لا الوصول إلى الحق، كما قال سبحانه وتعالى عنهم: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الأنعام: ١١١).
- لا ينتفع الكافر بأعمال البر التى عملها كإكرام الضيف والإنفاق على الفقراء والمساكين وغيرها فى الآخرة لافتقارها إلى الشرطين الأساسيين: الإخلاص فيها لله، ومتابعة شرع الله تعالى ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ (الكهف: ١١٠)

(١) أنظر صحيح مسلم بشرح النووى ١٧ / ١٩٦.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهؤلاء لم يتوفر فيهم شرط الدخول إلى حظيرة الإيمان، وهو كلمة التوحيد، شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ولكن الله يعوضهم في الدنيا بالصحة والجاه والغنى أما في الآخرة ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ (الفرقان: ٢٣).

- تتجلى الحقائق يوم القيامة، يستبشر المؤمنون بإيمانهم، ويسعدون بأعمالهم، في مقام صدق عند مليك مقتدر، أما الكافرون المعاندون فتأكل الحرة قلوبهم، ويندمون دلات ساعة مندم، يترك الصديق صديقه، وتحل العداوة والكره، والبغض بين الأخلاء، لأن كل علاقة مقطوعة، وكل رابطة مبتورة إلا ما كان مبنيا على الإيمان بالله ورسوله والعمل الصالح.

❁ ❁ ❁

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شكوى الرسول ﷺ من تصرفات القوم وتسليته عن ذلك

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾ ﴾ (الفرقان: ٣٠ - ٤٠)

تمهيـــــــــد

ذكرت الآيات السابقة بيان المصير السيء الذى ينتظر المكذبين بالرسول ورسالته يوم القيامة حيث يتخلى الأخلاء عن بعضهم، ويتناكر القرناء، ويندموا حيث لا ينفع الندم.. جاء الحديث هنا عن شكوى رسول الله ﷺ من هجرانهم للقرآن، وعدم تدبره، واقتراحاتهم وشبهاتهم كما جاء تسلية رسول الله ﷺ فى ذلك بذكر سنة الله فى جملة من الأنبياء مع أقوامهم، والمآل السيء الذى ينتظر هؤلاء كما كان لأولئك.

❁ ❁ ❁

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سبب النزول

أخرج ابن أبى حاتم وصححه عن ابن عباس قال: قال المشركون: إن كان محمد كما زعم نبيا فلم يعذبه ربه، ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة، فينزل عليه الآية والآيتين. فأنزل الله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ ﴾[1] (الفرقان: ٣٢).

❁ ❁ ❁

إجمال المعنى

بعد إلقاء القوم شبهاتهم على شخص رسول الله ﷺ، هجروا ما جاءهم به من الهدى والبينات ولا شيء يؤثر فى نفس الصادق عندما يرى إعراض الناس عن الصدق واتباعهم الباطل والكذب، ولا ألم أشد على نفس المصلح عندما يرى قومه يتركون ما فيه سعادتهم وعزهم وفلاحهم، ويتمسكون بما يعود عليهم بالفساد والهلاك والدمار.

فشكاهم رسول الله ﷺ إلى ربه، إنهم هجروا القرآن:

- بترك الاستماع إليه ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ (فصلت: ٢٦).

- وهجروه بالإعراض عنه إذ طرق سمعهم من غير إرادة منهم ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ٨ ﴾ (الجاثية: ٧ - ٨).

- وهجروا القرآن من حيث استبدلوا به لهو الحديث من لغو القول السيء ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٦ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٧ ﴾ (لقمان: ٦ - ٧)، كانوا يقصدون من كل

(١) تفسير ابن أبى حاتم برقم ١٥٩٢٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ذلك الحيلولة بين الناس وبين سماع القرآن من رسول الله ﷺ ولحملهم على عداوته فجاءت تسلية رسول الله ﷺ ومواساته من رب العزة والجلال أن ذلك سنة الله فى الرسالات والأقوام، وللرسول أسوة حسنة بإخوانه المرسلين.

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٣٥)..

وإمعانًا منهم فى هجر القرآن حاولوا إثارة الشكوك والشبهات حوله، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ (الفرقان: ٣٢).

فقد سمعوا أن التوراة كتب لموسى عليه السلام فى الألواح فلماذا ينزل القرآن منجما مفرقا الخمس والعشر فى أوقات متباينة؟!.

ويأتى الرد القرآنى على مقترحهم المشبوه ببيان الحكمة فى نزوله مفرقًا فمن هذه الحكم:

الحكمة الأولى: ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (الفرقان: ٣٢)، ويكون هذا التثبت فى صور:

١ – إن القرآن نزل على أمة أمية أناجيلها فى صدرها، ونزوله جملة واحدة يصعب حفظه واستيعابه.

٢ – لو نزل جملة واحدة ثم انقطع الوحى لأدي إلى دخول اليأس والملل إلى القلوب، أما تجد الاتصال والتتابع يسكن القلب بأن ربه ما قلاه ولا ودعه.

٣ – إن تكرار نزول الملك بالوحى ينشرح له صدر النبى ﷺ ويتلذذ بهذا العالم الروحى قال ﷺ لجبريل عليه السلام: «ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا، فنزل قوله تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾[1] (مريم: ٦٤).

٤ – اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون تربية هذه الأمة بالتدريج، وذلك من لطف الله سبحانه وتعالى بها، فجاء تشريع بعض الأحكام ثم نسخها إلى

(١) رواه البخارى – تفسير سورة مريم ٥ / ٢٣٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأخف للتيسير، أو إلى الأثقل لمضاعفة الثواب، أو المماثل للابتلاء، ونزول القرآن جملة لا يتناسب مع هذه المزية العظيمة.

٥ – إن تنزيله مفرقا وتحديهم بأن يأتوا ببعض تلك التفاريق كلما نزل شيء منها، أدخل فى الإعجاز، وأنور للحجة من أن ينزل جملة واحدة، وفى إظهار الحجة عليهم وتثبيت لقلب رسول الله ﷺ .

٦ – لو لم ينزل القرآن منجَّمًا على حسب الحوادث والوقائع فى كثير من آياته مطابقتها لمقتضى الحال ومناسبتها للمقام وذلك من تمام إعجازها، لتدخل الطمأنينة إلى قلب رسول الله ﷺ .

الحكمة الثانية : ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (الفرقان: ٣٢):

والترتيل مأخوذ من الرتل، وهو التتابع فى ترسل وتثبت مع النبيين. ووجه الحكمة فى ذلك أن الآيات أو السورة إذا نزلت عقب الحادثة أو تبعتها فإن ذلك أدعى إلى الفهم وأقوى لمعرفة دلالة الآيات ومضامينها، وأرسخ فى الذهن، وأشد تأثيرا فى النفس.

الحكمة الثالثة : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٣):

استفسارات القوم لا تنتهى، وتساؤلاتهم ليس لها حدود، وكلها من قبيل التعجيز وإثارة الشبهات، وكلها تحتاج إلى جواب أوردّ، فلو نزل القرآن الكريم جملة واحدة لم يتمكن الرسول ﷺ من إجابتهم أو الرد عليهم فى كل مرة، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٣)، فلا يأتون بحجة أو شبهة إلا أجابهم الله سبحانه وتعالى بما هو الحق فى نفس الأمر، وأبين وأفصح من مقالتهم، وهذا الاقتراح أو التساؤل هو آخر ما أوردوه عن القرآن وعن الرسول، وقد تقدم جملة من تساؤلاتهم التى نمقوها ورصعوا ألفاظها فأشبهت الأمثال فى عزابتها:

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ ﴾ (الفرقان: ٤)

- ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴾ (الفرقان: ٥)

- ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأۡكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشِي فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ ﴾ (الفرقان: ٧).

- ﴿ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلٗا مَّسۡحُورًا ﴾ (الفرقان: ٨).

- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ ﴾ (الفرقان: ٢١).

- ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ ﴾ (الفرقان: ٣٢).

لقد قصدوا بهذه الأمور إفحام رسول الله وابتغاء إظهار حاله أنها لا تشبه حال الرسل السابقين، لكن الله قذف بالحق على باطلهم فأزهقه، وجاء رسوله بالصواب وما هو الحق فى الاستدلال فبرز أمر رسول الله ﷺ لكل ذى بصيرة.

لقد أردوا بمقولاتهم تلك الغض من شأن رسول الله ﷺ، فانعكس الأمر عليهم فكانوا خاسئين فى الدنيا ويحشرون يوم القيامة على وجوههم إلى جهنم فكانوا شر الناس وأضلهم سبيلا[1]. وفى ذلك تسلية لرسول الله ﷺ ونصرة له، ووعيد للمشركين وذم لهم.

وفى أكثر من موضع فى القرآن الكريم يذكر حشر المناوئين لرسول الله ﷺ الجاحدين لدعوتهم المعاجزين فى طلباتهم على وجوههم، فكأنهم يريدون قلب

(١) فى صحيح البخارى عن أنس بن مالك أن رجلاً قال: يا نبى الله يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة! قال: أليس الذى أمشاه على رجلين فى الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة. كتاب التفسير ٦ / ١٤.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الحقائق والظهور بمظهر مخادع. والجزاء من جنس العمل فيكون حشرهم يوم القيامة فيه قلب لأوضاعهم كما جاء في سورة الإسراء ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ﴾

(الإسراء:٩٤-٩٧).

ثم ذكرهم بمصير أقوام سيقودهم إلى تكذيب أنبيائهم ورد رسالاتهم، والعاقل يأخذ العبرة من غيره، وأورد في السياق جوانب من قصصهم فيها تعريض بقريش:

أولاً: ففي قصة موسى عليه السلام:

أ) ذكر الكتاب الذي أنزل عليه إن هو إلا وحي أوحي إليه من ربه فجمع في كتاب.

ب) وفي ذكر هارون مع موسى تعريض بالرد على المشركين إذ قالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ٧)، فإن موسى عليه السلام لما اقتضت الحكمة تأييده لم يؤيد بملك ولكنه أيد برسول مثله من البشر.

جـ) في وصف القوم الذين كذبوا بآياتنا اختزال للقصة وانتصار على ذكر أولها وآخرها لأنهما المقصود للوصول إلى الغاية وهو استحقاق المكذبين التدمير بتكذيبهم رسلهم وفيه تعريض بقريش لموقفهم من رسول الله ﷺ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثانيًا: وفى قصة نوح عليه السلام:

أ) جاء التأكيد على القوم بأسلوب الاشتغال[1]؛ لأن حالهم هو محل العبرة فقدم ذكرهم ثم أكد بضميرهم.

ب) وفى قوله تعالى: ﴿لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ (الفرقان: ٣٧)، تعريض بأمرين وقعت فيهما قريش فى مجيء (لما) الظرفية إنارة سرعة وقوع الجزاء بمجرد وقوع السبب، فما أن وجد التكذيب وجد الإغراق.

وفى مجيء كلمة (**الرسل**) بصيغة الجمع وهم لم يكذبوا إلا رسولهم نوحًا عليه السلام تكذيب رسول واحد تكذيب لسائرهم جميعا، لأن دعوتهم واحدة وهو تعريض بقريش أيضًا.

لأنهم قالوا لرسولهم كما قالت قريش ﴿فَقَالَ الْمَلَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٤).

جـ) فى تذيل قصصهم بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الفرقان: ٣٧)، وهى قاعدة عامة تنطبق على كل ظالم ومنهم قريش الذين قالوا عن القرآن وعن الرسول: ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (الفرقان: ٤).

ثالثًا: ثم أدمجت قصص أقوام ثلاثة كانوا بالقرب من ديار قريش جنوبًا وشمالًا وشرقا وهم من القبائل العربية المعروفة لقريش:

أ) فقبيلة عاد كانت تسكن الأحقاف جنوب الجزيرة العربية فى حضر موت وما جاورها وأُرسل إليهم نبى الله هود عليه السلام ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٦).

---

(١) قوم: منصوب بفعل محذوف يفسره المذكور بعده تقديره: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ (الفرقان: ٣٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ب) وقبيلة ثمود كانوا يسكنون الحجاز شمال الجزيرة العربية (مدائن صالح)، أُرسل إليهم نبى الله صالح عليه السلام فكذبوه فأهلكوا بالصيحة الطاغية المزلزلة.

جـ) وأما أصحاب الرس[1] فكانوا يسكنون وسط الجزيرة العربية بوادى الرمة كما قال زهير بن أبى سلمى:

بكرن بكورًا واستحرن بسحرة فهن ووادى الرس كاليد للفم.

يقول المفسرون: كان نبيهم يسمى (حنظلة بن صفوان) قيل: خُسف بهم. وقيل: أخذتهم الزلزلة بعد أن قتلوا نبيهم. وقيل: سدو عليه البئر.

رابعًا: وقرونًا بين ذلك كثيرًا: التعبير بالقرون يدل على كثرتهم وامتدادهم عبر التاريخ لأن سنة الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤)، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥)، ولقد أهلكوا جميعا لتكذيبهم رسلهم.

خامسًا: القرية التى أمطرت مطر السوء وهى قرية لوط، والعبرة بهم أبلغ لأنهم يمرون عليها فى رحلة الصيف إلى بلاد الشام للتجارة ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ (الصافات: ١٣٧ - ١٣٨).

لقد ورد ذكر مصائر هؤلاء الأقوام الذين يحيطون بقريش وكانت قريش على علم بتاريخهم وأيامهم ليتفكروا فى مآلهم، إن أولئك كما الحال مع قريش «كانوا لا يؤمنون بالبعث فلم يكن لهم استعداد للاعتبار، لأن الاعتبار ينشأ عن المراقبة، ومحاسبة النفس، لطلب النجاة، وهؤلاء المشركون لما نشؤوا على إهمال الاستعداد لما بعد الموت قصرت أفهامهم عن هذا العالم العاجل، لم يعنوا إلا بأسباب ووسائل العاجلة[2]».

إن ذكر كل هؤلاء ومصائرهم تحذير لقريش وتسلية لرسول الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

(١) الرس: البئر غير المطوية (غير المبنية).

(٢) التحرير والتنوير: ابن عاشور، ١٩ / ٣١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دروس وعبر وهدايات

- الوسيلة الفعالة في الدعوة الإسلامية: هي القرآن الكريم، ولقد أدرك الجاهليون قديما دور القرآن فهجروه، بعدم الاستماع إليه، واللغو عند قراءته، وترك الإيمان به، وصد الناس عنه، والدعوة إلى ترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب نواهيه والعدول عنه إلى أنظمة جاهلية.
- كما أدرك الجاهليون المعاصرون دور القرآن في حياة المسلمين فقال قائلهم: لن يقر قرار للغرب في بلاد المسلمين ما دام القرآن في أيديهم، وما دامت الكعبة قبلتهم يتوجهون إليها في اليوم خمس مرات في اليوم[1].
- شبهات أعداء الإسلام حول القرآن الكريم وحول الرسول ﷺ مستمرة منذ بعثته عليه الصلاة والسلام إلى اليوم، وفي كل عصر يضيفون إلى افتراءات من تقدمهم من الجاهلين ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (الصف: ٨).
- منطق أهل الشرك واحد: إنكار الغيب، الاعتراض على بشرية الرسل، تكذيب ما جاء من عند الله (الكتب المنزلة) إنكار البعث بعد الموت، هذا ما ظهر من قوم نوح ومن بعدهم إلى مشركي قريش، وإلى يومنا هذا.
- سنة الله الغالبة تدمير المكذبين وإهلاكهم ونصر رسله وأنبيائه. إلا أن العذاب المستأصل لأمة الدعوة بعد بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام أخره إلى يوم القيامة تكريما لرسول الله ﷺ كما أخبر القرآن بذلك ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الأنفال: ٣٣)، فقد نصر رسوله من غير أن يستأصل الكافرين - أهل الحجا والنهى وأولو الألباب الذين يأخذون العظة والعبر من غيرهم ويدرسون الأسباب التي أودت بالممالك والحضارات السابقة ودمرتها، فيجتنبون مسالكهم وطرائقهم في الحياة وإدارة شؤونهم.

❁ ❁ ❁

(١) في كلمة لوزير المستعمرات البريطانية.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الاستهزاء والسخرية سلاح العاجز عن الحجة

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الفرقان: ٤١ - ٤٤)

تمهيـــــــــد

- عودة القوم إلى الطعن فى الرسول ﷺ وهذه المرة لم يجدوا ما يثرون حوله من شبهات فلجأوا إلى السخرية والاستهزاء، وهو دليل إفلاس القوم وفراغهم الفكرى والنفسى.
- والحكمة فى تأخير ذكر استهزائهم برسول الله ﷺ - والله أعلم - تكريم رسول الله ﷺ فكأنه قيل: إذا كان القوم قد تطاولوا على الذات الإلهية فاتخذوا معه شركاء، واعترضوا على كلام الله المنزل، وقالوا عنه أساطير الأولين، واعترضوا على طريقة نزوله. فلا غرابة أن يستهزئوا برسول الله ﷺ وقد انعكست عندهم القيم والمفاهيم فهم كالأنعام - وفى كل ذلك تطييب لقلب رسول الله ﷺ قبل ذكر استهزائهم به، وتوقحهم عليه.

❁ ❁ ❁

إجمـــال المعنـــى

لقد تفنن المشركون فى الطلب، وتفننوا فى إثارة الشبهات والاتهامات فلم يجدوا أثرًا لتفننهم واتهاماتهم على المعجزة وعلى الرسول، ولم يصلوا إلى غايتهم فى ثنى رسول الله ﷺ عن المضى قدما فى تبليغ رسالة ربه، لجأوا إلى السخرية والاستهزاء وهو علامة إفلاسهم الفكرى، فلو وجدوا مسلكا فى إثارة شبهة، أو أسلوبًا جدليا فى الطعن لما ادخروا وسعًا فى ذلك. لقد ألقى الله الحق على باطلهم فأزهقه، وما أَتوْا بمثل إلا جاء الله بالحق، وأحسن تفسيرًا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فلم يبق أمامهم إلا الاستهزاء بالرسول والحط من شأنه، لتنفير الناس منه، وصرفهم عن دعوته، هذا منطق الطغاة والعتاة عبر القرون.

فقد قال فرعون قبلهم يخاطب قومه ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ (غافر: ٢٦)، وقال أيضا: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٥١ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ٥٢﴾ (الزخرف: ٥١ - ٥٢).

وهؤلاء يقولون عن رسول الله ﷺ: ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ﴾ (الفرقان: ٤٢)، ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ﴾ (الزخرف: ٣١)، ولكن عندما تزال الحجب وتنكشف الحقائق، يتميز الضلال عن الهدى، ويبرز المصلح من المفسد، وتوضح موازين الحق ﴿وَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ حِينَ يَرَوۡنَ ٱلۡعَذَابَ مَنۡ أَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ (الفرقان: ٤٢)، إن هؤلاء المشركين ليس لديهم أثارة من العلم المنقول يتبعونه فى ضلالهم، وليس لهم أسلوب من التفكير السليم يوصلهم إلى ما يعتقدون، وليست عندهم حجة ولا برهان من المحسوس يستندون إليها، إنهم يرددون كالبهائم شعارات جوفاء سمعوها من أسلافهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٧١﴾ (البقرة: ١٧٠ - ١٧١).

إن هؤلاء الذين أعطوا ملكة العقل والتفكير ثم عطلوها واتبعو أهواءهم أضل سبيلاً من البهائم التى لم تستخدم ما وهبها الله فى غير ما خلقت له.

والبهيمة تقدر من أحسن إليها فلا تؤذيه، **والبهيمة** لم تتخذ مع الله إلهًا آخر، بل تسبح الله وتحمده، ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۩ ٥٠﴾ (النحل: ٤٩ - ٥٠).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لقد استحق المستهزئون هذا التحقير. والعلة واضحة، والحكمة ظاهرة، أمّا استهزاءهم برسول الله ﷺ، ومحاولة الحط من شأنه فهو جائر ظالم لا مبرر له.

لقد دفعت هذه الآيات الشبهات والمطاعن عن رسول الله ﷺ التى استخدمها المشركون من السخرية، والاستهزاء، والحط من شأن صاحب الرسالة ﷺ.. ورد الله كيدهم فى نحورهم وبين أنهم المستحقون لذلك لانحطاطهم إلى دركات الجهل والبهائم العجماوات..

حيث لا يبرز صدق النبى ولا تظهر مكانته إلا إذا أزيح ركام الباطل، وكتم الأراجيف عن شخصيته النبيلة الطاهرة.

❁ ❁ ❁

فوائد

- أهل الشرك والضلال والباطل يحاولون تبرير موقفهم والبقاء على ما هم عليه بشتى الوسائل والأساليب، باتهام خصومهم بالضلال وإثارة الشبهات حولهم والتهكم والاستهزاء بهم لإقناع أنفسهم بسلامة موقفهم.. وأنى لهم ذلك؟
- إن الذى لا يستخدم ما وهبه الله سبحانه وتعالى من المزايا والمواهب والإمكانات فيما خلقت له أسوأ من الأنعام التى تنحصر حركاتها على ردود الأفعال الانعكاسية للغرائز المودعة فيها، لذا لا حساب ولا عقوبة على الأنعام فى الآخرة، أما الكافر فعليه الحساب والجزاء جزاء ما اقترفت يداه من الآثام والموبقات.
- لم يعبد إله فى الأرض كالهوى، فلا دليل من النقل ولا حجة من العقل تؤيد عبادة غير الله تعالى، وإنما اتباع الهوى.. لذا كان متبعوا الهوى أضل من البهائم، حيث منحوا العقل للتفكير فى الحال والمآل، فلم يفكروا إلا فى شهواتهم العاجلة الفانية.

❁ ❁ ❁

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من دلائل النبوة الحقائق الكونية التى وردت على لسان الأمى ﷺ

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ ﴾ (الفرقان: ٤٥ – ٥٥)

تمهيـــــــــد

أولا: بعد الحكم على القوم فى الآيات السابقة وبيان أن لا سبيل لإفهامهم ولا رجاء فى اهتدائهم عن طريق المحكمات العقلية جاءت هذه الآيات بجملة من المظاهر الكونية المحسوسة، لعلها تثير فيهم التأمل والتدبر، فإن هذه الظواهر تدل على النظام فى الكون، والإرادة والمدبرة لشؤونه، ولا يمكن أن تكون صدفة عمياء أوجدت هذا النظام الكونى العميق الدقيق الذى يحقق مصالح المخلوقات فى هذا الكون العريض.

إن تدبر المشاهد المحسوسة فى هذا الكون سبيل للتفكير فيما وراء المحسوسات من عالم الغيب.

فإن المحسوسات طريق إلى المعقولات، وهى طريق للإيمان بعالم الغيب.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وهذه الآيات تفصيل لقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان: ٦).

ثانيًا: كثر الحديث فى عصرنا عما يسمونه التفسير العلمى والإعجاز العلمى فى الآيات الكونية وانزلقت بعض أقدام الباحثين نتيجة اندفاعهم وراء المكتشفات الحديثة وحاولوا لى أعناق النصوص الكريمة، وتحميلها مالا تحتمل من التفسيرات لمسايرة التطور الفكرى والصناعى، وكان فى المقابل ردود أفعال عند بعضهم مما جعلهم يريدون ظهورهم للحقائق القرآنية التى وردت الإشارات إليها فى القرآن الكريم فى الآفاق وفى الأنفس. ونذكر فيما يلى بعض الضوابط التى تعصم الباحثين من الزلل عند البحث فى مثل هذه الآيات الكريمة:

١ – القرآن الكريم كتاب هداية، والإشارات التى وردت فى آياته تنسجم مع هَدف إخراج الإنسان من متاهات الضلال وظلمات الشرك إلى نور التوحيد، وتنبيه الغافلين إلى حكمة الله فى مخلوقاته والتفكير فى الحال والمآل، ولا ينبغى تفسير الآيات على وجه يخرج القرآن عن هذه المهمة.

٢ – أن يجعل الباحث الحقائق العلمية المسلم بها عند أهل الاختصاص مجال الاستشهاد بها، وترجيح دلالات الآيات وأقوال المفسرين بعضها على بعض النظريات والفرضيات عن مجال البحث والترجيح، وذلك تنزيها للنصوص الكريمة عن تطرق احتمال الشك والغش فى دلالاتها.

٣ – عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة العلمية الواحدة.

إن الحقائق التى خلقها الله سبحانه وتعالى فى الكون، والحقائق التى أشار إليها القرآن الكريم تخرج من مشكاة واحدة ومن مصدر واحد فيستحيل التناقض بينهما ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (الفرقان: ٦)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وإن توهم بعض الباحثين التناقض بينهما فمرجعه إلى أحد أمرين:

- أما أن ما ظنه حقيقة علمية ليست كذلك وإنما هى نظرية، شاعت وانتشرت فتوهمها حقيقة علمية.
- وإما أن يكون فهمه للآية غير سديد لعدم رجوعه إلى دلالات الآية المختلفة واقتصاره على وجه واحد منها فكان هذا الوجه مرجوحًا لا راجحًا.

٥ – ترك الإفراط والتفريط: الالتزام بالمنهج الوسط عند البحث فى الآيات الكونية فلا تحمل أكثر مما تحتمل، ولا تلوى أعناق النصوص لتتسع دلالة معينة، كما ينبغى إهمال الإشارات الدقيقة إلى الحقائق العلمية التى ورت فيها، بل يتوجه الباحث حيث توجهه الآيات الكريمة إسهابًا أو اختصارًا.

ولا ينبغى أن توجهه قناعاته المسبقة حول قضية ما، فالقرآن هو الموجه، وهو الهادى إلى المنهج الأمثل فى البحث.

❁ ❁ ❁

المعانـــــــى

اشتملت هذه الآيات على جولات فى أرجاء الكون المنظور تخللها وقفات وتعقيبات للنظر والتدبر:

الجولة الأولى: (الظل والشمس)

امتداد الظل وتقلصه تبع لقرب الشمس من الأفق وابتعادها منه، وهى النظرة السطحية الظاهرة، أما النظرة الاختصاصية فتقول: إن ذلك تبع لدوران الأرض حول نفسها حيث يتولد الليل والنهار لمقابلة ضياء الشمس، فكلما دارت الأرض امتد النور لتتقلص ظلال الأجسام على الأرض..

ومن الجانب الآخر، ليمتد الظل من جديد للأجسام، وحيثما كانت الشمس عمودية على جسم فلا ظل له.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بهذا الاختلاف فى النظام توجد أسباب الحياة على الأرض، ولو شاء الله لجعل الظل ساكنا كما هو الحال فى ظل القمر أو غيره من الكواكب التى تقابل الشمس بوجه واحد، فالوجه المقابل للضياء يحترق من الحر، والوجه الآخر يتجمد من البرد، فنظام دوران الأرض وتعاقب الليل والنهار، هو السبب فى تهيئة الأرض للحياة.

أما القبض اليسير للظل فهو إشارة إلى اعتدال الكرة الأرضية عن محورها المماثل بدرجة قدرها الفلكيون بـ ٢٣ لينشأ اختلاف الفصول، واختلاف الليل والنهار طولاً وقصرًا فى الشتاء والصيف، وتساويهما فى الخريف والربيع، يقول عز من قال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ (القصص: ٧١ - ٧٣).

الجولة الثانية: (الليل والنوم والنهار والنشور)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾ (الفرقان: ٤٧)، هذه الظواهر الأربع آثار للظل والشمس، فإذا امتد الظل فغطى حانيا من الكرة الأرضية جاء الليل فغشى ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ (الليل: ١)، والساعة البيلوجية لدى الإنسان موزونة على ذلك فيدب الفتور والسكون إلى أنحاء الجسم فتهدأ الأعصاب، وترتخى العضلات، ويحدث النوم (الموت الأصغر) كما عبر القرآن ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٤٢)، ونوم الليل حقق الراحة للجسم أكثر من نوم النهار فى أى وقت آخر، وهو من التكامل فى نظام الكون الذى تشكل حياة الإنسان ونظام عمله جرءا منه ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾ (النبأ: ٨ - ١١).

كان من دعاء رسول الله ﷺ بعد قيامه من النوم: «الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور[1]» هذا النظام الكونى الدقيق تتكامل معه العادات والطبائع التى أودعها الله فى النفس الإنسانية، فلا تصادم بين النظامين بل انسجام وتآلف وتلاؤم.

❁ ❁ ❁

الجولة الثالثة: (الرياح والمطر)

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾

(الفرقان: ٤٨ - ٤٩)

ظهور السحاب فى الأفق، وملامسة الرياح الرطبة للوجه، تدخل البشر والسرور إلى النفوس، وتبهج الناس، وبخاصة من ترتبط حياته بالزراعة والماشية؛ لأن ذلك بشائر المطر والخصب والغناء.

وعلامة الرياح فى تكوين السحب والتأليف بينها وسوقها إلى مساقط المطر علاقة وطيدة وأساسية، وقد أشار القرآن الكريم إلى جملة من هذه الحقائق وفى آيات عديدة منها:

- قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (الروم: ٤٨).

---

(١) رواه البخارى فى صحيحه ٧ / ١٤٧.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

- وقوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ (النور: ٤٣).

ويقول جل جلاله: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ (الحجر: ٢٢).

- ويقول تبارك اسمه: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٦٤).

إن هذه الحقائق فى الرياح والسحب والمطر، وتكييف حرارة الأجواء لم يصل إليها الإنسان إلا بعد تطور علم الأرصاد، واستخدام الأجهزة الحديثة فى هذه الدراسات، يقول المختصون: (عندما يتبخر الماء يمتص كمية من الحرارة من الجو المحيط فى المناطق المدارية، فيعمل على تلطيف جوها، وعندما يتكاثف بخار الماء ويتحول إلى سُحُب وأمطار فى المناطق الباردة، فإنه يعيد إلى الجو نفس الطاقة الحرارية التى اكتسبها عند تبخره من قبل، وبهذا يتم رفع حرارة المناطق الباردة إلى حد ما، وكأن هذه الدورة تكييف إلهى مذهل جبار، ولابد من استمرارها من أجل عدالة التوزيع الحرارى على سطح الأرض[1]).

- **الماء والحياة:** يقول عز من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ (الفرقان: ٤٨ - ٤٩).

---

(١) الكون والإعجاز العلمى، د/ منصور حسب النبى صـ١٩٠.

ويقول: (إن المناطق المدارية – حيث أشعة الشمس القوية – أشبه ما تكون بالقلاية فى مكينة التكيف، والمناطق الباردة أشبه ما تكون بالمكثفات فيها).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ويقول جل شأنه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ (الأنبياء: ٣٠).

من الحقائق العلمية المسلم بها: حيث يوجد الماء ابحث عن الحياة.

وخاصية الطهارة والنظافة فى الماء خاصيّة لا يشاركه شىء آخر فيها، فطهارة الأجسام.

ونظافة الهواء والأجواء والهول والبطاح والجبال والوديان لا يكون إلا بالماء الطهور. وإحياء البلد الميت، وسقيا العباد والبلاد والأنعام لا يكون إلا بالماء العذب الفرات ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ (فاطر: ٩).

❁ ❁ ❁

الجولة الرابعة: (وقفة للتذكير والعقيب)

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ (الفرقان: ٥٠ - ٥٢). ذهب جمهور المفسرين إلى إعادة الضمير فى (صرفناه) إلى الماء، ومعنى تصريف الماء جريانه فى مسالك الأرض ووديانه، حيث تتحقق مصالح العباد بها، بالإفادة منه فى مجارى الأنهار، وينابيعه من العيون والآبار، وموطن تجمعه فى المحيطات والبحيرات والغدران، ولكن أكثر الناس أشركوا بالله وقالوا: إنما مطرنا بنوء كذا وكذا ولم ينسبوا الفضل إلى الله تعالى، كما قال رسول الله ﷺ لأصحابه يومًا على أثر سماء أصابتهم من الليل: «أتدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: قال: أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى، وكافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذ وكذا فذلك كافر بى ومؤمن بالكواكب[1].

(١) رواه مسلم فى كتاب الإيمان ١ / ٥٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وذهبت قلة من المفسرين إلى إعادة الضمير فى صرفناه إلى القرآن، وإن لم يتقدم له ذكر. ويعضد هذا القول سباق الآية حيث جاء بعدها (وجاهدهم به[1])، كما يرجح هذا القول الاستعمال القرآنى لمادة (صرّف) المشددة المسنده إلى الله تعالى، والتى تأتى بمعنى التحويل من حال إلى حال أو من وجه إلى وجه آخر كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (الإسراء: ٤١)، وقوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ (طه: ١١٣)، وغيرها كثير.

ووجوه تصريف القول فى القرآن الكريم كثيرة متنوعة، فمن ألوان التصريف: توجيه الخطاب إلى الفطرة الإنسانية، ومخاطبة العقول والقلوب بالحق الناصع، والحجة المقنعة.

- ومنها الأسلوب البيانى الذى يسيطر على المشاعر والعواطف بسحر البيان.
- ومنها ما يعرض القرآن من مشاهد يوم القيامة ما تنفطر له القلوب، وتهتز له كيان الإنسان ويقشعر له بدنه.
- ومن ألوان تصريف القول ما ورد فيه من قصص الغابرين الداعية إلى الاعتبار بما آلوا إليه.
- ومن ذلك ما ورد فيه من الحقائق، الكونية المذهلة.

كل هذا من تصريف القول فى القرآن وآياته، وهى من أنواع أسلحة الجهاد بالقرآن الكريم ﴿وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٢).

❁ ❁ ❁

(١) المحرر الوجيز لابن عطية ١١/ ٤٩.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الجولة الخامسة: (البرزخ بين البحرين)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ (الفرقان: ٥٣).

ظاهرة عدم اختلاط الماء العذب بالماء المالح من الظواهر التى أدركها الناس بأشكال وصور مختلفة:

- على شكل أنها ضخمة تحت مياه المحيطات، أمكن رصدها من الجو.
- وجود ينابيع عذبة تحت مياه البحر فى المياه الضحلة.
- فى مصبات الأنهار الكبيرة فى البحار حيث تتكون أحواض وحجر محجورة تمتاز بخاصيتها عن مياه النهر ومياه البحر فى الكائنات الحية والنباتات والأملاح.

ويعلل المختصون هذا التمايز بين المياه العذبة والمياه المالحة بوجود ظاهرة (المد السطحى) أو قوة التوتر السطحى، الناشئة من اختلاف التجاذب بين جزئيات الماء العذب والمالح لاختلاف كثافتهما فيبدد الحد الفاصل بينهما: «فسبحان من جعل بين العذب الفرات – النهر – وبين البحر المالح الأجاج برزخًا مائيًا – وهو الحاجز المائى المحيط بماء المصب – حبسًا على كائنات الحية ممنوعًا عن الكائنات الحية الخاصة بالبحر والنهر[1].

❁ ❁ ❁

(١) من أوجه الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فى عالم البحار صـ١٧ من إصدارات الإعجاز العلمى للقرآن والسنة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الجولة السادسة: (خلق الإنسان – النسب والصهر)

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٤).

خلق الجنين من ماء النطفة الأمشاج أغرب وأعقد من حال الكائنات الحية التى تخلق من ماء السماء، إن الخلية الواحدة من ماء الرجل، والخليفة الواحدة من ماء المرأة (البويضة) تحملان عناصر الوراثة للجنس كله، وللأبوين وأسرتيهما القريبتين، لنقلهما إلى الجنين الذكر والجنين الأنثى كل منهما بحسب ما ترسم لديه القدرة الإلهية من خلق واتجاه فى طريق الإنسان.

فجعل هذا المخلوق ذكرا يتزوج فيولد له ويثبت النسب إليه أو أنثى فتتزوج فيصاهر بها، وبوجود هذه القرابات من الأصهار – وهم أهل بيت المرأة بالنسبة للزوج – والأحماء – وهم أهل بيت الرجل بالنسبة للزوجة – تقوم العلاقات الاجتماعية، وتتلاحم وشائج الأرحام ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحجرات: ١٣).

❁ ❁ ❁

الجولة السابعة: (تعقيب واستغراب)

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ (الفرقان: ٥٥)، يأتى التعقيب والاستغراب بعد هذه الجولات فى الآفاق والنفس الإنسانية، التى تدل على تفرد الله سبحانه وتعالى فى الخلق والإبداع، وافتقار كل شىء من المخلوقات إليه، كيف يتخذ هؤلاء الكافرون من دون الله آلهة هى عاجزة عن جلب النفع لأنفسها ولعابديها، أو دفع الضر عن أحد.

لكن الكافر الذى حجب العقل عن التفكير، والفطرة عن الاشتياق لخالقها هو عد وللحق حرب على أولياء الله، فهو يحارب الله عندما يكذب بآياته ويحارب رسول الله عندما يزعم أنه افترى هذا القرآن من عند نفسه ونسبه إلى ربه، وفى كل ذلك هون عون للشيطان يعلن العداوة لربه ولكتابه ولرسوله.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فوائـــد ودروس وعـــبر

- من نعم الله العظمى بث دلائل قدرته فى الكـون ولفـت النظـر إليهـا ليتـدبرها العقلاء، ويؤمنون بالخالق جـل وعـلا عـن قناعـة، فيقومـون بتوجيـه العبـادة والإخلاص فيها له وحده لا شريك له.
- المنهج القرآنى فى الاستدلال على الغيبيات البدء بالمحسوسات التى لهـا أثـر فى حياة الناس ومصالحهم ثـم الترقـى بهـم للاسـتدلال مـن خلالهـا إلى خالقهـا ومدبر شؤونها ومسخرها لمصـالح العبـاد. وقدرتـه عـلى البعـث بعـد المـوت للحساب والجزاء.
- ورود الحقائق الكونية فى آيات الله الكريم دليل باهر على مصدر القرآن الكريم، وأنه تنزيل من الذى يعلم السر فى السموات والأرض. لأنـه علـم البشر ـ عـلى الرغم من تقدمه عاجز عـن اكتنـاه الحقـائق التـى وردت فيـه، فكيـف يـزعم الجاحدون المعاندون أن هذا القرآن افتراه محمد وأعانه عليه قوم آخرون.
- الكافر المعاند، عدو للحق، عدو لنفسه، عدو لمصالحه، فإنـه فى وصـف عـدوه مشاق لله ولرسوله، إنه نسِيَ الله فأنساه نفسه فهو حرب على الله ورسوله، سلم لأعدائه وهذه المشاقة والعداوة، لا تنفعه، لأبن يناصرهم ليس لهـم مـن الأمـر شىء فى الدنيا والآخرة، ومآلهم جميعًا إلى الله ليجازى كل على ما قدّم.

❁ ❁ ❁

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مهمة الرسول ﷺ ومنهجه في دعوة المعاندين

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٥٦ قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ٥٧ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ٥٨ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ٥٩ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورَۢا ٦٠ تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا ٦١ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةٗ لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورٗا ٦٢ ﴾ (الفرقان: ٥٦ - ٦٢)

تمهيـــــــــد

بعد بيان الدلائل والبراهين الحسية والعقلية على إثبات وحدانية الله تعالى، وبطلان ما هم عليه من عبادة مالا يضرهم ولا ينفعهم، ذكر ما يتعلق بمهمة الرسول ﷺ الرئيسة، وهي البشارة والإنذار، وأن لا يحزن على إعراضهم عنه، وأن يفهمهم أنه غير طامع من دعوتهم أن يعتز باتباعهم إياه(١).

❁ ❁ ❁

إجمـــال المعنـــى

جاءت الآيات بنوع خاص من التسلية لرسول الله ﷺ لإصرار القوم على عبادة مالا ينفعهم ولا يضرهم، وتنكرهم للحق الذي جاء به الرسول ﷺ لأن مهمته هي التبليغ، وليس مطالبا بهدايتهم وحملهم على الإيمان به وبرسالته، فهذا تحت مشيئة الله خالقهم، ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ ﴾ (القصص: ٥٦). ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ

(١) التحرير والتنوير: لابن عاشور ١٩ / ٥٧ بتصرف.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿ أَسَفًا ﴾ (الكهف: ٦). وبعد قصر مهمة الرسول ﷺ على البشارة والإنذار، عطف عليه الأمر بان يذكرهم أنه لا ينبغى بذلك أجرًا ولا مالاً ولا جاهًا.

ولما كان الاستمرار فى دعوة القوم إلى قوة دافعة وعزم قوى جاء الأمر بأن يتوكل على الحى الذى لا يموت، الغنى عن كل شىء، الذى لا يضام من توكل عليه، ولا يذل من ولاه، وتسبيحه وتمجيده آناء الليل وأطراف النهار، وتنزيهه عما ألصق به الجاهلون السادرون فى ضلالهم من صفات النقص والعجز فإنه خبير بما ينسبون إليه سميع بما يقولون عنه عليم بدخائل نفوسهم العاتية، وعقولهم الزائغة.

إن فى جملة ما ينزه عنه الحى القيوم إضاعته من يتوكل عليه أو إنقاص أجره، وخذلانه من يستنصره، وعجزه عن عقوبة من يكفر به ويكذب رسله.

ومن مظاهر كمال عظمته وقدرته تفرده بخلق السماوات والأرض، ووضع نظامها، وبث المخلوقات فيها، ووضع أقواتها وطاقاتها، وخلق السنن التى تسير بموجبها، كل ذلك فى ستة أيام، فكيف يُكفر بهذا الخالق العظيم، وكيف يجحده الجاحدون؟ ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾

(فصلت: ٩-١٢)

إن هؤلاء المعاندين لا يزالون على عنادهم – مهما أقيمت عليهم الحجج وبرزت لهم البينات وذكرت لهم صفات الجلال والجمال – فإن طلب منهم الخضوع للرحمن بعد كل ما تقدم قالوا: وما الرحمن؟! مستغربين متجاهلين،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

واستهزءوا بمن دعاهم وتمالصوا وقالوا: أنظروا إلى هذا الصابىء ينهانا أن تدعو إلهين، وهو يدعو الله ويدعو الرحمن، وما أدركوا أن لله الأسماء الحسنى ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (الإسراء: ١١٠).

﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ (الرعد: ٣٠).

إن الرحمن قد سبقت رحمته غضبه، فهو يحسن إلى عباده فى الدنيا كافرهم ومؤمنهم.

فلا يقطع عنهم الرزق والرعاية، وسخر للجميع السنن الكونية، وأطلق للجميع السعى للتعرف عليها وتسخيرها لمصالحه ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٠).

ومن رحمته بعباده أن جعل فى السماء بروجًا وخلق فيها السراج الوهاج والقمر المنير فتولد من خلق الشمس ووضع نظام المجموعة الشمسية وفق تلك البروج الليل والنهار يخلف أحدهما الآخر، فهل من متدبر لدقائق صنع الله تعالى فى هذه البروج والليل والنهار. فإن فيها الدلائل الباهرة على عظيم قدرة الخالق جل جلاله وواسع رحمته بعباده مما يستوجب شكر المنعم على إنعامه ولطفه بعباده[1].

❁ ❁ ❁

(١) يقول علماء الفلك: عدد البروج اثنا عشر برجًا، وتنقسم إلى قسمين: شمالية: تحص الربيع والصيف.. وجنوبية: تخص الخريف والشتاء وبحلول الشمس فى كل برج يختلف الزمان حرارة وبرودة. والليل والنهار طولاً وقصرًا. مما له الأثر الكبير فى الحياة على الكرة الأرضية وسكانها. روح المعانى للألوسى: ١٩ / ٤٠ بتصرف واختصار.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دروس وفوائد وعبر

- هم الكافر ومبلغ علمه الحياة الدنيا وزينتها من المال والجاه والشهوات، لذا يتهمون المصلحين فى كل العصور بأنهم يريدون ذلك المتاع يدعونهم، ولا ترتقى مداركهم إلى الأجر الأخروى الذى يرغبون فيه وما عند الله خير وأبقى.
- على الدعاة إلى الله والمصلحين الذين يسعون إلى إخراج الناس من الظلمات إلى النور أن يتوكلوا على الله سبحانه وتعالى حق التوكل مع الأخذ بالأسباب الظاهرة، وألا يتطرق اليأس إلى قلوبهم، وإذا قابلهم الجاحدون المعاندون بالتهم الباطلة والاستهزاء والسخرية، فإن العاقبة لهم، ولهم الأجر الوافر عند ربهم يوم القيامة.
- الله جل جلاله خالق كل شيء، يقول للشيء كن فيكون، (إلا أنه خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ليعلّم الناس التثبت والتروى والتؤدة. وخلق العرش واستوى عليه استواء يليق بجلاله وكماله وعظمته، وما على الجاهل أن يسأل خبيرا بالله أو عالما، ثم يتبعه ويقتدى به[1].

من لطف الله بعباده ورحمته بهم أن جعل فى السماء بروجًا للشمس، ومنازل للقمر، وجعل الشمس ضياء، والقمر نورًا، وجعل الليل والنهار متعاقبين على الكرة الأرضية، كل ذلك لتحقيق مصالح عباده، ففى الليل سكون وفى النهار حركة وسعى ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (القصص: ٧٣).

❁ ❁ ❁

(١) التفسير المنير للزحيلى ١٩ / ٩٨ .

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثمرات الرسالة الربانية

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا (٦٧) وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١) وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦) قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (٧٧) ﴾

(الفرقان: ٦٣ - ٧٧)

تمهيـــــــــد

بينت الآيات السابقة موقف الكفار وعداوتهم للحق الذى جاء به رسول الله ﷺ وإصرارهم على إنكار استحقاق الرحمن للعبادة والخضوع.

وفى خاتمة السورة توضح الآيات ما يضاد الكفرة وصفاتهم؛ ليبين صفات الذين استجابوا لدعوة الحق وآمنوا بالرسول ﷺ فهم ثمرة هذه الدعوة ونتاجها، وفى وصفهم بصفة العبودية المضافة إلى الرحمن تكريم وتشريف لهم، ورد وتحقير لمن أنكر الرحمن وأبى السجود له.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ووصف عباد الرحمن بخصال تتعلق بتعاملهم مع أنفسهم، وتعاملهم مع الناس، ومعاملتهم لربهم جل جلاله، وهم المُثل الحيّة الواقعية للفئة المؤمنة، والأنموذج الذى يكونه الإسلام بمنهجه التربوى الخاص. وهم محل رعاية ربهم، ولولاهم، ولولا تضرعهم إلى ربهم لم يعبأ الرحمن أن ينزل بأسه بأهل الأرض جميعا.

سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾ (مريم: ٦٠).

أخرج البخارى عن ابن عباس قال: لما أنزلت فى الفرقان ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (الفرقان: ٦٨)، قال مشركوا أهل مكة: قد قتلنا النفس بغير حق، ودعونا مع الله إلها آخر، وأتينا الفواحش الفواحش.. فنزلت ﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾[1] (مريم: ٦٠).

❁ ❁ ❁

إجمال المعنى

ختمت سورة الفرقان التى اشتملت آياتها على المنهج الربانى الذى نزل به القرآن والرسول الذى قام بتطبيق هذا المنهج، وبلغه للناس ودعا إليه ختمت بصفات عباد الرحمن، وهى شهادة ضمنية لرسول الله ﷺ بنجاح دعوته ونجاح المنهج التربوى الذى دعا إليه من خلال تبليغ الفرقان.

فعباد الرحمن هم المثل الحيّة الواقعيّة التى أراد الإسلام تكوينها بمنهجه التربوى الخاص، وهم المستحقون لنزول الرحمة، ولولا وجودهم لم يعبأ الله عزوجل أن يأخذ أهل الأرض فى طرفة عين.

واشتملت الآيات الكريمة فى الخاتمة على ثنتى عشرة صفة من صفات عباد الرحمن وزعت على أربعة أقسام:

القسم الأول: فى تحليلهم بالكمالات. **القسم الثانى**: التخلى عن الضلالات.

القسم الثالث: الاستقامة على شرع الله.

---

(١) صحيح البخارى الحديث رقم ٤٧٦٥.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

القسم الرابع: تطلعهم إلى الزيادة من صلاح الحال.

وهذه الصفات الخلقية الاثنتى عشرة التى ذكرت لعباد الرحمن هى من أسس الأخلاق الإسلامية، وهى ثمرة من ثمرات العقيدة الإسلامية.

والالتزام بها وتحويلها إلى سلوك، ومنهج حياة، وهذه حسب ورودها فى الآيات هى:

- التواضع – الحلم – التهجد – الخوف من الله – ترك الإسراف والتقتير – البعد عن الشرك – اجتناب القتل – النزاهة عن الزنى – التوبة – تجنب الكذب قبول الموعظة – الابتهال إلى الله.
- ويحسن أن نشرح كل صفة من هذه الصفات بإيجاز، لبيان أهميتها ومكانتها بين الأخلاق الإسلامية.

١ – **التواضع** : خلق رفيع يزيِّن أهل العلم والفضل والنسب والجاه، يزيدهم جمالاً وبهاءً، وعزًّا، على ما هم فيه.

فالمؤمن هين لين يمشى بسكينة ووقار، لا يريد علوًّا فى الأرض ولا فسادًا، وقد تكرر الأمر بهذا الخلق فى آيات القرآن الكريم كما فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾ (الإسراء: ٣٧).

وكما جاء على لسان لقمان لابنه ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾ (لقمان: ١٨ – ١٩).

٢ – **الحلم**: إذا تعرّض المؤمن لسفه الجهلاء لم يقابلهم بالمثل ولم ينزل إلى دركتهم، كما أخبر القرآن عنهم فى آية أخرى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (القصص: ٥٥).

وهو سلام مُتَارَكَةٍ وإعراض، لا سلام تحية وترحيب، لأن مجاراة السفهاء نوع من السفاهة والطيش.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٣ – **التهجد ليلاً**: بعد ذكر معاملتهم لأنفسهم ولغيرهم، ذكر تعاملهم مع خالقهم جل وعلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴾ (الفرقان: ٦٤)، وخص قيام الليل بالذكر؛ لأنه أبعد عن الرياء، وأشد أثرا فى تهذيب النفس كما أخبر المولى عن ذلك ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴾ (المزمل: ٦).

٤ – **الخوف من سوء المصير**: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ (الفرقان: ٦٥)، إن المؤمن يعيش بين الخوف والرجاء، فمع خشوعهم وقيامهم بالليل يخشون ربهم أن يردها عليهم، ويتهمون أنفسهم بعد أدائها على الوجه الأكمل بعدم صدق النية فيها لله تعالى يقول عز من قائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ (المؤمنون: ٦٠).

وقالت عائشة رضى الله عنها: يا رسول الله أهو الذى يزنى ويسرق، ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ فقال لها: لا يا بنت الصديق ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل[١].

٥ – **الاعتدال فى الإنفاق**: الإسلام دين العدل والوسطية فى جميع شؤون الحياة، وقد وجه رب العزة والجلال رسوله، ومن ورائه أمته بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (الإسراء: ٢٩)، وهذا الاعتدال يكون فى الإنفاق على الملذات المباحة، أما فى الأمور المطلوبة شرعًا فلا يُقال فيها سرف **قال الحسن البصرى**: ليس فى النفقة فى سبيل الله سرف.. **وقال إياس بن معاوية**: ما جاوزت به أمر الله تعالى فهو سرف.. **وقالوا**: لا سرف فى الخير، ولا خير فى السرف[٢].

٦ – **البعد عن الشرك**: ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ﴾ (الفرقان: ٦٨)، وكأن فى ذكر هذه الكبائر فى هذا السياق وبيان تنزه عباد الرحمن عنها تعريضا بما كان عليه أعداؤهم من المكذبين بالقرآن والرسول الذى

(١) رواه الترمذى فى كتاب السير ٥ / ٩.
(٢) التفسير المنير للزحيلى ١٩ / ١٠٨.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

جاء، والشرك بالله من أكبر الكبائر على الإطلاق، وقد صرح القرآن الكريم أن الذنوب جميعها تحت مشيئة الله تعالى إن يتب عنها المذنب، إن شاء غفرها، وإن شاء عاقب عليها إلا الشرك فلا تجاوز عن المشرك يقول جل جلاله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ (النساء: ١١٦).

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ : أى الذنب أعظم؟ قال: «أن تدعو لله ندًّا وقد خلقك. قال: ثم أى؟ قال: أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك، قال: ثم أى؟ قال: أن تزانى حليلة جارك[(١)]».

٧ – **اجتناب القتل**: ﴿وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ (الفرقان: ٦٨)، لقد حرم الإسلام قتل النفس، وعصمها، إلا فى حالات حددها الإسلام بثلاث كما جاء فى قول رسول الله ﷺ : «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة[(٢)]». والحفاظ على النفس وعصمة الدماء من الكليات الخمس التى جاءت شرائع الإسلام للحفاظ عليها. وهى: الدين، النفس، العقل، العرض، المال.

٨ – **النزاهة عن الزنى: (ولا يزنون)**.

نظم الإسلام الغرائز لدى الفرد وهذبها، فلم يطلق لها العنان للإشباع، ولم يكبتها فيحرمها من نيل نصيبها من الاستمتاع. وإنما أشبعها بطريق منظم لتؤدى وظيفتها الإيجابية فى الحياة وعلى رأس هذه الغرائز غريزة الجنس فشرع النكاح، وشرط له شروطًا لضمان استمرار النسل البشرى من غير اختلاط فى

---

(١) صحيح البخارى كتاب الديات ٨ / ٣٤. صحيح مسلم: باب كون الشرك أقبح الذنوب ١/ ٦٣ . الترمذى: كتاب التفسير ٥ / ١٧٠.

(٢) صحيح البخارى: كتاب الديات ٨ / ٣٨.
صحيح مسلم: باب ما يباح به دم المسلم ٥/ ١٠٦ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأنساب ليبقى المجتمع متماسك البنيان، سليما من الآفات والأمراض، الناجمة من الفوضى الجنسية والانحرافات الخلقية. ولقد سمى الله سبحانه وتعالى عقد الزواج ميثاقا غليظا يقول تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾ (النساء: ٢١).

ووضع للأعراض سياجًا واقيا فمن تعرض لها بمقالة سوء فعليه أن يأتى بأربعة شهداء وإلا جلد على ظهره يقول عز من قائل: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ (النور: ٤)

ومن تجاوز الحدود ووقع فى الفاحشة، فإن كان بكرًا جلد مائة جلدة، وإن كان محصنًا رجم بالحجارة حتى الموت ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور: ٢). ويقول رسول الله ﷺ : «الثيب بالثيب الرجم...[(١)]».

٩ – التوبة: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ ﴾ (الفرقان: ٧٠).

من رحمة الله بعباده أن فتح لهم باب التوبة، فمن حسنت توبته، وأخلص لله فى عمله بعد التوبة، فإن الله يغفر ذنبه ويستر عليه، بل يبدل تلك السيئات حسنات عن أبى ذر الغفارى قال: قال رسول الله ﷺ: «إنى لأعرف آخر أهل الجنة خروجًا من النار، وآخر أهل الجنة دخولًا إلى الجنة، يؤتى برجل فيقول: نحُّوا عنه كبار ذنوبه، وسلوه عن صغارها، قال: فقال له: عملت يوم كذا، كذا وكذا، وعملت يوم كذا، كذا وكذا، فيقول: نعم، لا يستطيع أن ينكر من ذلك شيئًا فيقال: فإن لك بكل سيئة حسنة، فيقول: يا رب عملت أشياء لا أراها هاهنا قال: فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه[(٢)]».

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٤٥١١.
(٢) صحيح مسلم: ١ / ١٢١ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وجمهور المفسرين على أن لا تعارض بين آية الفرقان وهى مكية وآية سورة النساء وهى مدنية قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٩٣). فإن سورة النساء مُطْلقة فتُحمل على من لم يتُب، أما آية الفرقان فإنها مُقَيَّدة بالتوبة.

وقد جاء الحث على التوبة والاستغفار فى نصوص كثيرة من الكتاب والسنّة كما فى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ (آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦).

ويقول رسول الله ﷺ: «لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه، من رجل كان فى سفر فى فلاة من الأرض، نزل منزلا وبه مهلكة، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه، فأوى إلى ظل شجرة، فوضع رأسه فنام نومة بعدها، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها، فأتى شرفا فصعد عليه فلم ير شيئًا، ثم أتى آخر فأشرف عليه فلم ير شيئا، حتى اشتد عليه الحر والعطش، قال: أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه فأنام حتى أموت، فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته فبينما هو كذلك رفع رأسه فإذا راحلته قائمة عنده، تجر خطامها عليها زاده طعامه وشرابه، فأخذ بخطامها، فالله أشد فرحًا بتوبة المؤمن من فرحه براحلته وزاده[1].

وقد تكرر النص على التوبة فى قوله تعالى: ﴿ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ (الفرقان: ٧١).

---

(١) صحيح البخارى كتاب الدعوات ٧ / ١٤٦.
صحيح مسلم: فى الحصن على التوبة والفرح بها ٨ / ٩٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تعميم بعد تخصيص فالاستثناء على التوبة من الشرك والقتل والزنى.

أما هذا فلبيان حال من تاب من جميع المعاصى.

١٠ - تجنب الكذب: (الترفع عن حضور مجالس الزور واللغو)

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ (الفرقان: ٧٢)

من أشد أنواع الكذب الزور، فأثر هذه الجريمة مضاعف لأن الأصل فى الشهادة أن **تكون عونا لإبراز الحق**، وإيصاله إلى صاحبه، فالميل بها على حقيقتها تعطيل لها عن أداء دورها.

والثانية: يكون قد ساهم فى إلحاق الظلم بآخرين، وتمكين أهل الباطل من تحقيق مآربهم، لذا اعتبرها رسول الله ﷺ من أكبر الكبائر فقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس فقال: ألا وقول الزور وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[(١)]».

وذهب بعض المفسرين إلى أن الزور يعم كل باطل، وبهذا المعنى يكون من صفات عباد الرحمن عدم حضورهم مجالس الباطل، ولعل ذكر مرورهم كرامًا على اللغو يؤيد هذا التعميم كما فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (القصص: ٥٥).

إن الوقت رأس مال الإنسان، والمسلم يضن أن ينعْق رأس ماله فيما لا فائدة فيه، ومجالس اللغو أقل ما يقال فيها: إنها للثرثرة، والعبث وضياع الوقت والغفلة...

١١ - قبول المواعظ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ (الفرقان: ٧٣).

---

(١) صحيح البخارى، كتاب الشهادات، باب ما قيل فى شهادة الزور ٣ / ١٥٢.
صحيح مسلم باب الكبائر وأكبرها: ١ / ٦٤ .

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من شأن المؤمن أن يأخذ العظة والعبرة من كل شيء من شأن المؤمن أن يأخذ العظة والعبرة من كل شيء فإذا سمع آيات الله تتلى، أو ذكّره أحد الناصحين بآيات من كلام الله تعالى لم يردها عليه؟

يفهم معناها مقدرا لما تهدى إليه، مقارنا حاله هدايات الآيات، فإن كان فى سلوكه أو فعله أو قوله خلل عدّ له واستقام على الهداية.

كما أن آيات ربهم تشمل الآيات الكونية، التى يستدل من خلال التمعن فيها وأوضاعها وهيئاتها على النظام التام الذى يسود أجزاءه ومجراته ونجومه وكواكبه، ويستدل من خلال ذلك على الخالق المبدع، بخلاف الكافر الذى لا يهمه مما حوله إلا أن يوفر له اللذة الفانية والمتعة الدنيوية العابرة، فهو أصم وأعمى عن هدايات تلك الآيات ما كان منها وحْيًا، وما كان آية مرئية أو مسموعة مما يحيط به حوله.

١٣ – الابتهال إلى الله تعالى والدعاء له ولذريته:

﴿ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (الفرقان: ٧٤).

من أصول العبادة الابتهال إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء والالتجاء إليه فى كل شيء «فالدعاء مخ العبادة[١]».

والدعاء مطلوب فى أمور الدنيا كما هو مطلوب فى أمور الآخرة، ومما يجمع به خيرى الدنيا والآخرة: الذرية الصالحة، فبهم تقر الأعين فى الحياة الدنيا، وهم استمرار لعمل المرء بعد مماته وانقطاع عمله.

ففى الذرية الصالحة حياة مديدة للآباء والأمهات، وعمل صالح مستمر، يقول رسول الله ﷺ: «إذا امات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث، ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به، أو صدقة جارية[٢]».

---

(١) أخرجه الترمذى: ٥ / ٤٥٦ رقم ٣٣٧١. وقال حديث غريب.

(٢) رواه مسلم، باب ما يلحق الإنسان من ثواب بعد وفاته : ٥ / ٧٣.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لا شيء أقر لعين المؤمن من أن يرى ولدًا أو أخًا أو حميمًا مطيعًا له. والإمامة فى الدين مرغوب فيها بموجب هذه الآية الكريمة، فدعاء عباد الرحمن لم يقتصر على طلب الذرية الصالحة التى تخلفه من بعده، بل يدعون أن يكونوا هم وذرياتهم أئمة فى الدين يقتدى بهم، هداة مهتدين، يتعدى نفعهم وخيرهم إلى غيرهم من الناس، لذا كان من دعاء خليل الرحمن ﴿وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ (الشعراء: ٨٤).

هذه أخلاق عباد الرحمن التى وعدهم ربهم عليها الدرجات العلى فى الجنة، بسبب صبرهم على هذه الأخلاق الكريمة، وصبرهم على ما يلاقونه من الأذى والمصائب بسبب عقائدهم وسلوكهم المتميز.

يجزون على ذلك الغرف العالية، يكرمون بالتحية والدعاء بالسلامة والإقامة الدائمة فى نعيم الجنة الذى لا ينقطع ولا الخوف من الزوال.

يتوج كل ذلك بالتحية والسلام من ربهم عز وجل ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ (يس: ٥٨).

والأمن من زوال النعم عنهم أو زوالهم عنها، أمر تكرر فى ثنايا السورة، لأن مما ينغص على أهل النعمة استمتاعهم بنعمة المال والجاه تعرضها للزوال عنهم، أو تحولهم عنها بالموت، لذا فإن إدخال الأمن والطمأنينة إلى القلوب يقتضى النص على الخلود فى جنات الخلود ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلٗا﴾ (الكهف: ١٠٨)

﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ جَزَآءٗ وَمَصِيرٗا ١٥ لَّهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعۡدٗا مَّسۡـُٔولٗا﴾ (الفرقان: ١٥- ١٦).

هذا ما ينتظر عباد الرحمن، أما الذين لا يعرفون لهدايات القرآن رأسًا ولا يلقون لمنهجه التربوى بالاً، فهم أهون عند الله من أن يجعل لهم وزنا،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أو يكترث بهلاكهم، ولولا كون بعثة رسول الله ﷺ رحمة للعالمين، وقد أرجأ الله سبحانه وتعالى عقوبتهم إلى الآخرة ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأنفال: ٣٣).

لولا ذلك لأنزل بهم عذاب الاستئصال، ولا يبالى بشأنهم، ولا يعبأ بهم فقد استحقوه بأقوالهم وأفعالهم التى كذبوا بها الرسول وأنكروا دعوته، وقاوموا منهجه، والله من ورائهم محيط.

❁ ❁ ❁

بين البدء والخاتمة

خاتمة السورة اشتملت على صفات عباد الرحمن وهى بمثابة النتيجة لبدء السورة التى تحدثت عن المعجزة – القرآن الكريم – والرسول الذى أنزل عليه المعجزة، على المنهج الذى التزمه الرسول ﷺ ودعا إليه فى العقائد والسلوك والأخلاق، وذكر هذه الصفات فى الخاتمة شهادة على سلامة المنهج، وتصديق للرسول ﷺ فى دعوته، ونجاحه فيها.

إن هذه الصفوة من عباد الله عباد الرحمن تشمل المؤمنين إلى يوم القيامة ويدخل فيهم – صحابة رسول الله ﷺ دخولاً أوليًّا – هم محل العناية الربانية، ولولاهم لم يكترث بأهل الأرض.

وفى ذلك تسلية لرسول الله ﷺ لأن من أثمرت جهوده هذا النتاج الطيب عليه أن يتحمل المشاق ويصبر على الشدائد لتحقيق هذه الغاية النبيلة.

❁ ❁ ❁

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

دروس وعبر وفوائد

- المناهج التربوية الصحيحة تنتج أناسًا ربانيين يتصفون بالكمالات الخلقية، والسلوك المستقيم، والاعتدال والوسطية في جميع تصرفاتهم ومعاملتهم مع أنفسهم ومع غيرهم من الناس ومع خالقهم عز وجل.
- من رحمة الله سبحانه وتعالى بعباده أن فتح لهم باب التوبة من جميع المعاصي والذنوب والآثام كبيرها وصغيرها، وحث عليها وأبعد اليأس والقنوط عن قلوب العباد، وباب التوبة مفتوح حتى تطلع الشمس من مغربها، وحتى تدخل النفس حال سكرات الموت.
- طلب الزعامة والرياسة في الدين مرغوب فيه لأن القدوه في الدين يكتب له أجر ما يقتدى به، وكل من يتبعه، فأعماله في صفحة أعمال إمامه وقدوته من أن ينقص من أجره شيء.
- تكرر في السورة في أكثر من موضع النص على الخلود، ومنها الخاتمة لبيان أهمية الأمن النفسي والاستقرار والطمأنينة في حياة الإنسان وخاصة في الجنة، أما في الدنيا فلا أمن على البقاء في حالة واحدة لأن النعيم معرض للزوال عن صاحبه للعوارض التي تعترى أحواله. أو صاحب النعمة سيزول عن النعيم بالموت، أما نعيم الجنة فهو المخلد الذي لا يزول، ولا موت فيها لأصحاب النعيم..

❁ ❁ ❁